

علي بدر

خرائط منتصف الليل

مكتبة

مكتبة

الفكر الجديد



خرائط منتصف الليل

علي بدر

خرائط منتصف الليل





Author: Ali Bader
Title: Maps of Midnight
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

المؤلف : علي بدر
عنوان الكتاب : خرائط منتصف الليل
الناشر : المدي
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

دار المدا للنشر

سورية - دمشق م.ب. ٨٧٧٢ أو ٧٦٦٦ - تلمون : ٢٢٢٢٢٧٥ - ٢٢٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٢٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس : ٧٥٦٦١٧ - ٧٥٦٦١٦

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد - ابو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٢ - بناية ١٤١

مؤسسة المدي للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almeda112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدمات .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

تصدير الرحلات

"أولئك الذين يرحلون

على خرائط منتصف الليل

إلى المدن البعيدة

يروون عن سعادة النهار.. ويخبرون أيضا"

Le voyageur

Jean Olpajian

الإهداء

إلى ليليان حايك وجينا كساب
وأحمد أورهان ومعصومة أصفي
في ذكرى المدن التي زرناها ... ذكرى البحر والحجر

المقدمة

في الباخرة التي أقلتني إلى بيروس.. تذكرت المقطع الذي أجبر
آرثور رامبو على الهجرة والرحيل إلى أفريقيا:
(إن السماء المخضبة بالبطولة تؤذن بالليل لا بالنهار.. إن الحياة
الحقة هناك .. في مكان آخر).

من الذي يدفعنا اليوم إلى الهجرات والرحيل إلى المكان الآخر ..
حلم الלאعودة.. أم الحلم بالوصول.. المنفى والمكان المستحيل أم الصورة
الاستعارية للفردوس؟

الفكرة التقديسية غير الهندسية للكون (الكوزموس)، أم الأصول
الأولى لآدابنا الشرقية والتي تعني البحث عن العالم المكتنف بالغموض،
والمحاط بالجمال العصي على الوصف؟

الأحلام غير المتبلورة عن الفردوس الأرضي، أم المكان المجهول دون
حدود؟

كان الضباب الإغريقي العميق يحجب المشهد، وعلى صوت هدير
الباخرة وتوافد المسافرين والبحارة الذين يهرولون بملابسهم التي تجذب
النساء، والحديث الذي يضيع في هدير محركات الباخرة وصافرتها وهي
ترسو، وعلى صوت الجرس الذي يقرع بلا انقطاع، كنت أفكر ذلك اليوم

بالحرب التي خضناها، كنت أفكر بالرحيل العظيم .. بالهجرات ... بالمنافي الكثيرة والتي ربما لا تجيب على أي سؤال من الأسئلة التي طرحناها. كنت أفكر بالمصير الغامض الذي يشوش أكثر مما يحجب ظلمة المشهد، أفكر بالأشكال العديدة وبالوجوه التي لا تحصى والتي تسبب تناقض الآراء والأحكام دون شك، أفكر بالمجهول الذي ننطلق لنكتشفه، أفكر بالطرق الغامضة التي كنا نتتبع أثرها... أو على الأقل نتتبع المشاهد التي مثلتها الأحلام العظيمة للناس وهي تهول نحو مصيرها الحاسم، صحيح ... لم ينقل أحد منا إلى اليوم لغة غير معروفة، أو خبرا عن عرق مجهول، فمنذ سنوات لم تهز البشرية اكتشافات جغرافية كبرى على الأرض، لكنني كنت أعرف على الدوام أن الفن هو الذي يجد في العالم الغامض وغير المعروف جوابه الأخير.

بماذا كانت تجيب رحلاتنا وهي مختلفة كلياً عن رحلة أولئك المغامرين الذين كانوا يقطعون الصحراء في طريق الحرير، أو درب الظلمات في المحيطات تحقيقاً لحلم الفنانين بالألوان المشعة، أو حلم الصحراويين بالنبات الوفير، أو حلم الفلاحين بأشجار من أوراق ذهبية وفضية، أو حلم الفقراء بفواكه عجيبة، أو حلم التجار بوفرة من الأحجار الثمينة والتي تشكل الكنوز التي كان العالم الأسطوري يخفيها في العصر الوسيط، وبدلاً من أن تعمل المراجع التوثيقية التي ظهرت فيما بعد على تصحيح وتوضيح هذه المفاهيم، قامت بتغذيتها ومدتها بكل خيال ممكن...

بماذا تجيب رحلاتنا ولم تعد كما كانت تكشف عن المجهول الديني خارج خرائط الرحالة وخارج جغرافيات بلدانهم، أو كانت على الأقل

تجيب على أسئلتهم الميتافيزيقية التي تتجاذبهم وتهدم أكثر مما تمسح الصورة الأسطورية النمطية للكون، أو الخوف من السقوط بتأثير الرحلات إلى الفضاء السديمي والجن والأموات؟

*

منذ العام ١٧٥٤ لم يعد العالم مجهولا، ومثال المتوحش الطيب الذي كنا نمثله لروسو، ولشاتوبريان فيما بعد، أو المتوحش وكفى لابن فضلان لم يعد موجودا، غير أن ما يتكرر هو نوبات جنون التاريخ، رحلات الجنود لغزو أراض بعيدة كما كانت حملة الأطفال (مئة ألف طفل مسيحي انطلقوا وحدهم إلى أورشليم فأبيدوا أو أخذوا عبيدا)، وعالم السباح السهل والبسيط جدا، ونهاية العالم الفنتازي والمدهش والذي أصبح في عصرنا في ماض وبقعة غير محددين أبدا، وهكذا انتهى كل غزل بريء بالكون، وانتهت جنة عدن دون شك مع الحوار الأعظم مع زحمة الأخبار والهلوسات ونوبات الجنون التي جعلت من تمرد أنطيفون خيرا عائنا.

إذن ما هي الأسئلة التي تجيب عليها رحلاتنا بعد أن سحقت الإنسانية تحت الأخبار الوفيرة كل أساطيرها؟.. بماذا تجيب رحلاتنا بعد صعود المعارف الانثروبولوجية والإثنوغرافية والطبيعية لتعزز الرحلة كما كانت مصادرها حول التعصب الديني، ونظريات الاستبداد السياسي، ومفاهيم العقلانية والتنوير واليوتوبيا؟

بماذا تجيب رحلاتنا بعد أن ماتت الرحلة الرومانطيقية التي دشنها الفكر الكلاسيكي العظيم، وماتت الرحلات التبشيرية تحت العقلانية والعلمانية التي تحتاج الكون، حتى وإن أحييت هذه العقلانية المرتدة

الحروب الدينية بذريعة تشبيه ذريعة الدفاع عن بيزنطة، إنه العصر الذي عجل من يقظتنا كما قال اندريه ميكيل، وعجل من يقظتهم عن طريق الرحالة الذين رأوا وشاهدوا وأخبروا، وهو أمر ينطبق علينا على أية حال، فالرحالة الذي شاهدوا الغرب هم الذين نقلوا عدوى التحديث إلينا بطبيعة الأمر.. وبعد كل هذه الجهود نجد أنفسنا نردد صرخة جوليان غراك.. "لا أحد يعرف الشيء الكثير عن بلاد فرغستان..".

أقول -أنا الذي عدت توا من الرحلة- بعد كل هذه التجارب الملهمة، بعد كل هذه التجارب التي دفعتنا جميعا للرحيل، لا نخجل من أن نردد ولو مع أنفسنا: (كان يمكن لأورسينا أن تكون وراء بحر السيرت..). كما توقع ذلك بطل غراك... كما توقعنا نحن.. كما توقع الآخرون... غير أنه العصر يا (ناتنايل) وأنت تبحث عن القوت الأرضي، العصر الذي قلل تحت الثورة النشطة رحلات الحج في الإسلام، ورحلات الرهبان الكبوشيين في جغرافيا التراث البيزنطي، وقلل من شأن الحكايات والقصص التي انبثت أصلا على ديكور الشرق وعاداته وسلوكه، وخفض من قيمة مذكرات ورحلات الجنود، وجعل مغامرات البحارة وجوايي البحار أمرا تافها، وأصبحت الأراضي المجهولة معروضة ومكتشوفة لكل من يريد.

إذن.... أين المجهول بعد الوفرة الفنية والجمالية لهذا العصر؟

*

منذ زمن بعيد ونحن لم نسمع عن اكتشاف جديد بدهشنا، ومذكرات الرحالة أصبحت أقرب إلى دعايات وكالات السياحة والسفر منها إلى الاكتشافات العظيمة الكبرى، أو فتوح التاريخ والتي أنجزها

رحالة عظماء مثل ابن فضلان أو كارستن نيبور، كما أن العصر الحديث وبالمعنى الذي تحدث عنه بطل خليج السرت أنهى فكرة التوغل في الصحراء وما يتأخمها من مدن بعيدة ومجهولة كما كان يصر عليها ابن بطوطة أو بيسشاري أو ناتنائيل بطل القوت الأرضي لأندريه جيد، كما أن الطواف مع القوافل دون دليل أو نقطة محددة لم يعد يمنح الصدفة التي تقود إلى تتبع طرق مختلفة، ومسارب متنوعة من المجهل، وهكذا انتهت قصص المغامرين وحلت محلها حكايات السياح المتقاعدين والأنصاف متعلمين والأدباء والصحفيين غير الموهوبين، وانتهت المذكرات العظيمة لأولئك الذين تاهوا أو ظلوا الطريق في الصحراء أو في البحر، ولم يعد هنالك أدلاء يقرنون الشجاعة بالقوة والذين عانوا من العنف المحروم من البصيرة ومن العزلة غير أنها منحتهم التنوير... كما كان نيتشة يصرخ: (قيصر بوجيا ولا بارسيفال).

.. فالبطل الذي ينتهك أعظم بما لا يقاس من طاهر النفس الذي يموت في الظلمة.

*

إن الشغف بكل ما هو غريب لم يتوقف حتى اليوم، ليس من أولئك الذين عاشوا في المتروبولات الكبيرة المغشية بالفضاء الرمادي، والفحم، والدخان، والسخام، والطين، والذي ولد لديهم الاستيهام بالشمس، والرغبة الجديدة في الارتواء المحسوس، إنما حتى منا نحن الذين عشنا تحت الشمس، فالشغف بالغريب هو الرغبة بالانبعاث الجسدي، وهكذا فإن الرحلة هي التطلع المتعاضم للنشوة، وهو ما يجعل نص الرحلة مفككا، ومعيوشا بسبب بعدها السيروي ويسبب فوريتها، ومباشرتها،

من غير أن نتوهم أشياء عجيبة كما كان يتوهم ذلك الرحالة الغربيون،
الوهم الذي فضحه نرفال في رسالة إلى غوتبيه بعد رحلته إلى مصر^١.

*

ويبقى السؤال الأكبر والذي ينهض على سؤال يتحمل الكثير من
الاحتضارات، احتضارات الناس والأمكنة أيضا: كيف نكتشف المكان؟
كيف نكتشف المكان بعيدا عن عاديته، وبعيدا عن كل ما يجعل منه
مألوفاً؟ وأنا لا أقصد هنا المكان المجهول أبدا، لأنه لم يعد هنالك مكان
مجهول مطلقا، لا بسبب هذه الوفرة المعلوماتية التي طبعها عصرنا
علينا، إنما لسقوط الأسطورة الغربية، التي كانت تعد المجهول كل ما هو
خارج جغرافيتها، واندحارها، فما هو مجهول نسبة لي هو معلوم
لساكنيه، ولا مركز للكون هنا ليقرر أو يحكم.. إذن يبقى السؤال
الأصعب هو الكيفية التي نكتشف فيها المكان بعد سقوط مجهوليته،
ونهاية تهميشه؟

*

أتذكر الآن وصولي الأول إلى اسطنبول، كنا نسير على ضفة من
الحصى قرب البحر، وكان الظلام دامسا، وفي الغسق الشفاف كان رذاذ

١. "آه يا صديق، كم رأينا -أنا وأنت- خرافة الرجل الذي يجري وراء الثروة وهو على
سريره... فأنت ما زلت تعتقد بطائر أبي منجل، وزهرة اللوتس الحمراء القانية، والنيل
الأصفر، وتؤمن بنخلة الزمرد، والصبّار الهندي، والجمل وحيد السنام... ولكن للأسف
قطائر أبي منجل هو طير بري، والنخلة بهينة منفعة الريش الهزيلة، والصبّار الهندي ليس
سوى صبار بري، ولا يوجد بعير إلا وهو في هينة وحيد السنام، والعالمات هن أشبه
بالذكور، أما ما يخض النساء الحقيقيات، فأنت سعيد لأنك لم تلتق بهن...".

وبعد ذلك يقول نرفال إلى تيوفيل غوتبيه :

"آه كم جميلة القاهرة... ولكن من باريس...".

البحر يضرب وجوهنا ، انتابني تلك اللحظة شعور غريب ، شيء أشبه بلحظات نسيان أو نوم ، حركة الظلام التي تسقط في المياه العميقة في البحر ، صوت الصخرة التي يضرب بها الموج ، وهذا العشب الغض والذي كنت أجاوره بحذائي ، أحسست بدما ، عنيفة تنبض في داخلي ، تدفع عني الضعف والنوم والخور والنسيان ، شيء يلهيني ، شيء يجعلني أركض أو أنغمر بالماء... أنمجد بالبحر والفضاء والرمال... الرحلة ببساطة هي هذه... الرحلة تمرن حي على الشعر... تجديد وانبعاث للجسد مثلما يجدد الشعر بفعالية جسد اللغة ومنع عنها التكلس والموت... مثلما يهزها أو ينفضها بقوة ، ويجعلها نابضة فتية تتلام بشكل فتان مع عواطفنا.. الرحلة هي الشعر ، أي بمعنى آخر هي إخلاص للمعرفة والتحرر ، شيء يضاء في الروح وفي الدم واللحم ، دروب تنار من جديد تمنحها نظرة متجددة ، والرحالة شاعر تائه تسيطر عليه فكرة عمر الإنسان وعمر الأرض ، وروح المكان ، الرحالة شاعر أصيل وغامض ، مكتشف رائد ، مليء بالأسرار ، إنه مثل الشاعر متوحش قليلا ، وحيواني أيضا لأنه يفترس الجمال بنهم مثل حيوان جائع.

*

الرحلة هي البحث عن سعادة النهار في خرائط المدن ، البحث عن المكان الذي يشير كل ما هو شهواني وأرضي في تجربة الغموض التي يكشف عنها ، والقلق والانفصال الذي يذهب ويعود ، والأرض الباردة التي تتحول إلى شعر غنائي للتجسد ، والمدن التي تختزل في تعاقب وتركيز وكثافة ، وتتفجر صورا.

الرحلة تجدد المدن بالنظرة وبالروح.. تغييرها وتنعشها ، تجعلها

متجددة لأنها تعطيها قيمتها، فمدننا التي نألفها ولا نراها سنراها مرة أخرى بعيون الآخرين، بعيون الرحالة الذين يهبونها صورة جديدة ونظرة عميقة سنراها نحن أيضا على خلاف ما كانت تبدو لنا، وهكذا سيرى الآخرون مدنهم التي ألفوها بعيوننا.

الرحلة منذورة للشعر من جهة ومنذورة للحقيقة من جهة أخرى، وهذا التوتر والصراع يمنحها جوهرها الوجودي، يعطيها روح الكائن، أي أن المكان يبطل أن يكون فضاء خاليا أو مادة أو جمادا، ويتحول إلى كائن حي يعيش ويتنفس، الرحلة تمنح المكان مفاتيح الفردوس، مثلما المكان يمنح النص أبعده الحية ويجدده، فالمكان الذي يتجدد عبر النص يؤثر في النص، يمنحه صورة جديدة ومعجما جديدا ونسقا إنشائيا جديدا، إنه يجدده ويشربه، ويغنيه بالصور والأحداث والعواطف، وهكذا كان الشعراء يسيحون بحثا عن مكان يجدد لهم معجمهم وصورهم وحياتهم، هذه العلاقة المتبادلة بين النص والمكان هي النصر الحاسم على الموت، موت اللغة أو موت المكان، كما أنه تجديد لحوار الكائن مع مخلوقاته ومع خالقه، إنه النور... النور الأبدي الذي يأتينا من هذه الجهة ونرى تأثيره على التراب... كما في قصيدة غوتيبه:

حينما يتقدم المركب مسحوبا بخطوات ونيدة
تبدو النفس وهي طافية بعذوبة في الفراغ
حيث يسهرون وهم ينصتون لصمت السهول،
يصغون لصمت البجع الذي يفوق نصف إفاقة
والكلب الذي يبيع على عتبة الأكواخ البعيدة
والهمسات الموشوشة للنهر العظيم النائم.

في ظلال البازار الكبير رحلة إلى اسطنبول

(رويداً رويداً، بتمهل وببطء، وكمثل من يكتشف متحسناً بيديه
جسد امرأة غريبة تعرّفت عليك، مع أنك موجودة دائماً. منذ أن اقتنع
(المغاربيون) بأقوال كاهن دلف وسكنوا في شبه الجزيرة المقابلة لشاطئ
العميان، بل وقبل ذلك بكثير، منذ أن بنى الإنسان الأول ملاجئ القصب
عند مصب نهر (كاغيت هانّه) في الخليج، لتحميّه من الوحوش
الكاسرة، منذ ذلك الوقت موجودة كنت وحتى الآن).

مقطع من كتاب حبيبتى اسطنبول
للكاتب التركي نديم غورسيل

-I-

الوصول إلى المدينة العظيمة

حين وطئت قدمي اسطنبول أول مرة كنت أعرف جيدا أي أرض وطئت.. لا أتحدث هنا عن التاريخ وهو أمر لا يمكن إهماله بأي حال من الأحوال.. ذلك لأنها مدينة تجاوزت هذا الحس العادي الذي نطلق عليه مدينة التاريخ لأنها مدينة صنعت التاريخ ورشحته وعمته.. بل شغلت الناس وشغلت التاريخ على مدار القرون الخمسة المنصرمة.

*

كان السائق كبير السن بلحية بيضاء مدببة، يرتدي قميصا أزرق، ويضع على رأسه بيرة حمراء قنانية، سار بي هادئا من مطار أتاتورك الواقع شمال شرق اسطنبول نحو فندق فيلا زوبرخ في ضاحية بايوغلو. في الطريق، وقبل أن نعبّر مضيق البسفور، كنت أقلب دليل الرحلة إلى اسطنبول الذي طبعته دار إيفير في باريس وقد أرسلته لي صديقة فرنسية كانت مولعة بالسفر إلى تركيا، وقد كتبت لي على غلافه الخارجي مقطعا من رحلة تيوفيل غوتية إلى اسطنبول، غير أن هذا الدليل لم يكن يقدم سوى معلومات بسيطة ومبتذلة عن المدينة، فالقائع التي تحيط بي والتي كانت تزاحمني من نافذة السيارة كلما رفعت رأسي

تكذب المعلومات التجريدية والسطحية المكتوبة بشكل مبتذل في الدليل، وعلى رصيف البحر حيث انعطف السائق بي كانت البواخر التركية شبه المتداعية مزدحمة كما لو كانت بواخر لاجئين، واسطنبول الصباحية تفوح برائحة الأحجار والأزهار الموضوعة في الزهريات بعناية. بعد أن وصلنا إلى سركجي أخذ السائق يقود سيارته ببطء شديد، ثم انعطف نحو الجسر الذي يعبر مضيق البسفور:

كان الطقس منعشا، هبات باردة قادمة من البحر تضرب وجهي من النافذة، والإزدحام على أشده، الشوارع امتلأت بحشود الناس والسيارات، وعصافير الدوري تتسكع بمرح على الأرصفة المغسولة، باصات المدارس ورائنا يجلس فيها الطلاب الأتراك بيضا ومنضبطين، وعلى الشاطئ، كان زحام المارة والبحارة بزيمهم المميز، ورجال البوليس يقفون في الطابور كما لو كانوا يتهينون لاستقبال إغريقي. كان المسافرون يهبطون من المراكب البحرية، وجمهور آخر يصطاد السمك من حافة الجسر، وآخرون يجلسون على الأرض يعبرون بشكل بسيط عن الكسل والبطالة واليأس الريفي.

يؤشر الدليل السياحي الذي في يدي المسير بخط واحد من غالاتا سراي إلى بايوغلو، وهو أمر لم يكن حقيقيا على أرض الواقع، غير أن السائق الذي أخذ يفقد أعصابه شيئا فشيئا صار يقرع الزمور بقوة وهو يحاول تجاوز زحام الظهيرة في اسطنبول. على الجانبين من الشوارع كانت المطاعم تنتهي، لاستقبال متناولي الغداء، والنادلون الأشد تعباً يجيبون على الطلبات بصوت عال، وكل شيء حي وناض: البوتيكات المفتوحة أبوابها، السواح النشطون الذين يسبرون ويتفحصون المكان،

الرجال الذين يتمددون في الشمس، رافعات البحر، مداخن القرميد، ولا وجود للصورة التقليدية للتركي: الشوارب المفتولة، القبعة الكبيرة، البنطلون الفانيلا، المجعبة الخاكية، والحذاء المشقوب، حذاء الأفاق الرومانسي التي نتناقلها من جيل إلى جيل.

لقد حل محل التركي التقليدي التركي العصري: حليق الشوارب، بالملابس الإفرنجية، يحضن صديقه كما يفعل الشباب في لندن أو باريس أو تورنتو.

- وصلنا ساحة تقسيم. قال السائق.

ما قاله صحيح، لا شيء إلا لأن الصورة التي في الدليل تطابق الواقع، الصورة الجامدة في الدليل أخذت تتحرك، أخذت تتحول إلى واقع، الطيور البنية التي تطير وتحط في الساحة، السابلة وأكثرهم من العشاق يرمون الحب على الأرض، رجل في الثلاثين من العمر يجلس على المقعد الخشبي في الساحة وقد تمددت صديقه إلى جانبه. سيدة مسنة تبيع الحب. سيدة أخرى تضع حقيبة على ركبتها وقد أمالت عينها نحو الساحة.

التفت الشوفير نحوي ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة، كلماتي التركية البسيطة شجعت، جعلته يتحدث لي قصة طويلة وأنا أوافقه دون أن أفهم منها الكثير، حركات وجهه وتحولات ملامحه تطلب مني استجابة ما، وأنا بين أن أنظر نحوه وبين أن أنظر إلى المشهد المتحرك أمامي الذي يجذبني، فأجيبه بكلمات تركية قليلة، كلمات قليلة تريحه أو تحفه أو تهدؤه، أحيانا يرقب بصري وهو يلاحق سيقان الفتيات، أو مؤخراتهن وهن يخطفن على عجل من سيارتنا المتوقفة في الترافك

لايت، فيعلق بجملته أو بجملتين، وأنا أضحك، أحيانا يرسم صورا فكاهية بيديه، يعلق على أشياء لا أفهم كنهها.

حين وصلنا تقسيم أشار بيده إلى صورة كبيرة لنصر الدين خوجة "جحا" المرسومة على جدار عريض، ثم اشتعل الضوء الأخضر فانخرط بسيارته في أحد الصفوف المزدحمة. توقفنا مرة أخرى في شارع جيهان جادسي أمام مطاعم الشاورما. الترامواي الأحمر كان متوقفا في محطة استقلال جادسي، هرعت امرأة بحقيبة مشمعة وتوجهت نحو باب الترامواي وصعدت، أبواب تنفلق وتنفتح وسط الضجة، سائق يشتم آخر بالتركية، أكشاك مفتوحة: أكشاك بيع الصحف والكتب والمجلات، المحلات الهادئة التي تقدم القهوة والعصير والبوظة، مخزن بيع السجائر، صالون الحلاقة.

*

توقف أمام بوابة الفندق الزجاجية الكبيرة، في شارع جيهان، هبط مسرعا وترك باب سيارته مفتوحا، أنزل الحقائب بسرعة فتلقفها منه عمال الفندق، أخذت السيارات التي خلفنا تدق زموها بعصبية، هبطت مسرعا، مددت يدي بجيبتي أخرجت الليرات التركية وهي بالملايين، وأخذت أعد على يديه ببطء، بينما الزمورات ازداد وضواؤها، سيدة أخرجت رأسها وأخذت تتكلم بعصبية، شخص آخر أخذ يشتم، رجال آخرون أشاروا إليه أن يتحرك وهم ينظرون بدهشة نحوي، تلعثم وقد بدا الاضطراب عليه، لم تكن لديه فكرة.

قلت له: خذ المليون واذهب.. لقد جعلت منك مليونيرا!!

ابتسم، شكرني، ثم وضع الأجرة في جيبه، ركض مسرعا، ركب سيارته وانطلق باتجاه شارع الاستقلال.

*

دخلت الفندق، لم يكن مرتفعا كثيرا، كان صغيرا، متواضعا، بثلاثة نجوم، ولكنه محايد وحميمي جدا، دخلت الصالة وتوجهت نحو موظفة الاستعلامات، توقفت أمامها وأخرجت أوراقي، وجواز سفري:

- عراقي.

- نعم.

- أهلا وسهلا.

ابتسمت... أكدت لي الحجز، اعطتني ورقة، قدمت لي المفتاح، قلت لها بالتركية بأني أريد حجرتي مقابلة للبحر، ابتسمت كأنها لم تفهم ما قلته لها، التفتت إلى الشاب الذي يجلس إلى جانبها، وقد فهمني مباشرة، ابتسم لي، وقال لها بأني أتحدث التركمانية العراقية، ثم التفت نحوي وقال:

" هنا لا يفهمون إلا التركية الحديثة".

فأخرجت من جيبى كتاب تعلم اللغة التركية وأريته له، فضحك لأنه لا يقرأ إلا بالحروف اللاتينية، فقد تغيرت الحروف المستخدمة في تركيا منذ قرن من العربية إلى اللاتينية، ضحكنا دون أن نعرف سبب الضحك، كان كل منا يضحك على سبب ما في ذهنه لا علاقة له بسبب الآخر.

ثم نهضت الفتاة من مكانها بخفة، كانت جميلة، رشيقة، ترتدي تنورة قصيرة وقميصا دون أكمام، وقادتني من صالة المطعم نحو السلم لأن المصعد معطل هذا اليوم، فتاة جميلة ذكرتني بنساء دلفي:

توقفت أمامها.. كانت الصالة تبكي بعد رحيل الضيوف من فراغها
المحزن، وكان المصباحان الجداريان على جانبي المرأة منارين، والثريّة لم تطفئ
بعد، ومن عمق المكان فاحت رائحة البيرة ودخان السجائر والعطور الغربية.

*

أمام الشقة التي سأقطنها كان العاملان يحملان الحقائب وينتظران
أمام الباب، وصلنا إليهما وأنا أشعر بسحر المرأة الواقفة إلى جانبي،
رائحتها الفذة، وحركتها المتناسقة، فتحت باب الشقة ودخلنا نحن
الأربعة، السرير المرتب، المنضدة النظيفة، الفرش، الحمام، الشراشف،
المناشف، والمصباح في الزاوية يلقي بنوره الرقيق على طاولة الكتابة:

شرفة تطل على البحر من جهة، ومن الجهة الأخرى على شارع
جيهان، توقفت أمام المحجر الحديدي، لقد أسرني المشهد:

زرقة البحر الساكنة، البواخر الكبيرة المتجمعة عند الرصيف،
الرافعات، سفن الصيد الصغيرة، ومن الضفة الأخرى من اسطنبول،
الجامع الأزرق، جامع السليمانية الكبير، آيا صوفيا، طوب قابي
سراي... جلست أهدق بالمشهد وقد ارتخت أعصابي تماما... كنت أهدق
بسفح التل البعيد، بالجزر التي تختفي في ضباب البحر، بالقلاع التي
تعسكر حولها الأشجار الضخمة، بقطاف الثمار المكومة في الأكشاك
على الرصيف، بالصيف الذي يغرد عند الجسر، بالصيف الذي يغني في
الظلال العميقة، بالصمت الذي يقترب من المقاهي وابتعد عن الرصيف،
بالود الذي يغري الطيور نحو الشبكة، بالحرية الحزينة التي تنقلها خطى
النادلات، بالبحر الذي يتسلى بالرصيف وهو يمد مجرفته الطويلة الزرقاء
عند الحجر... هل هنالك ما هو أجمل من هذا؟

النساء طبعاً

النساء التركيات مثل نساء دلفي وأقصد:

نساء صغيرات، جميلات، كل واحدة منهن ذراعاً مشغولتان طوال
النهار بالحرير والأغصان الهشة، نساء صغيرات أشبه بمصباح. روحهن
بخار وإكليلهن عطر، نساء صغيرات يذهبن دائرات أظهرهن إلى البحر،
ووجوههن إلى السماء، نساء صغيرات خفن لا يدوس البلاط وحديثهن
لا يباح... وصورتهن لا تمرّ دون جرس في الطريق، نساء غميز على
وجوههن قمر المغيب وعلى شفاههن نداوة الليل...

-II-

ساحل البسفور

من ساحل البسفور... كنت أنظر إلى الأسوار، إلى صفوف الأزهار الشفافة، إلى التلال العالية العصية على التسلق.
من ساحل البسفور كنت أنظر إلى الكوى التي تغور في النهار الساطع، إلى البيارق التي ترفرف فوق الأبراج الحجرية، إلى الأزهار التي تتسلق جدران القصور البعيدة أو تحتضن البيوت الحجرية المطلّة، إلى الأشجار التي تحيط بكنائس اسطنبول القديمة، أدبرتها الضخمة، إلى نافوراتها في المساجد، وأيقوناتها في الكنائس، إلى قبابها المذهبة، إلى فسيفساتها، إلى أعمدتها المرمرية، وزجاج نوافذها التي تلمع في الضياء الذي يتخلل الظلال.

*

هذا المشهد البسيط والمحايد يلح على ذاكرتي كلما سمعت هذه الكلمة السحر التي تنتمي إلى عالم الخيال أكثر مما تنتمي إلى عالم الواقع... اسطنبول.

حينما خرجت السيدة الصغيرة من حجرتي، لم يعد لي شيء أنظر نحوه سوى السماء التي أخذ لونها يتحول من الأبيض المزرق إلى الزرقة

الغامقة.. انحنيت على السياج، نظرت إلى الشارع المزدحم القادم من شارع الاستقلال ويتقدم رويدا رويدا نحو رصيف البحر.. ما زال الزحام على أشده: سيارات صغيرة، باصات كبيرة، تاكسيات، وسابلة يمرون أمام واجهة المقاهي والمطاعم والبوتيكات، كانت النوارس تحوم على القبب البعيدة وقد توهج الأفق خلفها زهريا ناصعا، لم أستطع رؤية شيء من بعيد، كدت أنسى الغيوم البيض التي تشبه القطن، أنسى تلاحقها الجميل وقد دفعتها الرياح صوب الجزر في بحر مرمرة، أنسى أصوات النساء الرقيقة القادمة من أكشاك الزهور في شارع جيهان، أنسى زمورات السيارات وهي تنطلق، حركة الندل في المقاهي، السواح الروس والأميركان واليونانيين والبلغار في الشارع الجانبى حيث شيدت الملاهي والبارات، عيني لا تستقران على الحجارة البيضاء، ولا على الجزر البعيدة ولا على الأفق الذي ينداح متلاشيا بالضباب صوب البحر، كنت أبحث في المدى عن سماء أخرى، عن سماء مفضضة تحتضن الزرقة الحبرية في بحر مرمرة، عن مراكب يلفها ذبول عظيم وسط مضيق البسفور، عن عنابر بعيدة لا يصلها التجار ولا البحارة ولا القراصنة، إنما يصلها أبطال الأساطير، كنت أبحث عن المتوسط وهو يمتد بزرقتة الساجية إلى معابد الآلهة، إلى معابد الأولمب، وفي شرفة الصومعة الزجاجية كنت أشم رائحة التاريخ المألحة ممزوجة برائحة الصنوبر العذبة.

*

وهكذا كنت أبحث عن وصول آخر.. إنه الوصول إلى المدينة العظيمة... الوصول إلى مدينة الأحلام والأساطير.. الوصول إلى مدينة المياه الشفافة، مدينة الغرب والشرق بأعمدتها التسعين وجوانبها الأربع.

أسماكها العظيمة ببريقها الذي يتلأأ ورائحتها الحادة جذبت أعظم الصيادين، أزهارها التي تتراقص في المياه جذبت الآلهة البيزنطيين، الأشجار التي حفت بها من كل مكان جذبت إليها الملائكة والشياطين. اسطنبول... هي بيزنطة القديمة، شبه جزيرة العثمانيين، الأكربول القديم والأبنية الرسمية في المدينة اليونانية القديمة.. الساحة التي يجتمع فيها الناس لمناقشة السياسة والتجارة في إدارة دولة المدينة في اليونان القديمة، هذه حماماتك، تماثيل آلهتك البرونزية، هذه أبوابك، آثارك الرخامية، ميدانك الفسح الذي يتجمع فيها العظماء والخيول والمصارعون والمتسابقون، هذا ميناؤك الذي تفرغ فيه السفن حمولات الرخام، أنت إسلامبول.. مدينة الإسلام ومتربولها العظيم... بعد أن تم للفاتحين دحر القسطنطينية...

*

اسطنبول هذه الكلمة التي عذبت سيفيرس طويلاً.. الكلمة- المفتاح.. الكلمة التي تحرك المشهد البسيط الذي يحيط بي: الرصيف المغسول برذاذ البحر، أشجار الصنوبر التي ينعشها هواء الصباح، العجوز التركية التي تجلس في الشرفة في العمارة المقابلة للفندق الذي أقطنه وهي تروف الجوارب بيديها، وعلى مقربة منها حفيدتها بالملابس المختصرة تسقي زهور الظل، وفي أسفل العمارة كان الكناري في القفص المعلق تحت شجر الأكاسيا يلقي برأسه إلى الوراء ويشدو ثملاً على برودة الهواء القادمة من البحر، هل هذه هي اسطنبول التي دوخت التاريخ؟ ساحة صغيرة بطيبتها وزيتونها وعرائشها، بعزلتها وحرارتها وشذاها... أهذا قبر محمد الفاتح مثل ضريح نبي محاط بالزهور.. أهذه

اسطنبول العظيمة والمنتصرة.. إذن أين ركائب السروج التي تسلفتها جزم السلاطين.. أين السيوف التي كانت تبرق في ظلام التاريخ.. وأين السعف؟

كنت أقف هناك، في الزاوية الصغيرة من الشرفة، أنظر إلى شجر الضواحي، إلى القطع المدببة المصنوعة من الحجر أعلى المساجد الكبيرة، إلى الضوء الذي يبضع المقهى مثل سكين ويلقي بظل الشجر على الرصيف المغسول، أنظر إلى مستودعات البحر ناصلة الصبغة وقد جلس تحتها أتراك ضاحكون يدخلون السجائر أو يحتسون البيرة، ومن خلفهم بحار عميقة وبعيدة تنكشف من ظلمات التاريخ، تنكشف من مواجهات التاريخ ومن حروبه، من سكناته وهجماته، قوارب تندفع خلصة يقودها الأبطال، أديرة تتلامع وجوامع تنبثق شاهقة من الصخور، عبيد وخصيان ينقلون أنباء النصر إلى السلاطين، ونساء ينقلن الماء إلى النساك، أشجار النخيل التي لا تنحني أمام الرياح في الصحراء، وبغايا المدن في طريق حرير يقتحمن السوق المؤدي إلى مسجد المدينة، ورحالة يتهادون ويتجهون إلى الصحراء..

أقف هناك... النوافذ ذات الأقواس تكشف عن القاعات الواسعة، القصور البعيدة التي يضيء دهاليزها المعتمدة نور قادم من البحر تكشف عن حكايات التاريخ، المآذن المدببة ترتفع، الغيوم البيض تعيق النوارس والقطارس وهي تهبط إلى البحر، وبرج غالاطا يبرز من وراء قباب ومآذن الجوامع... هذا سراي يلدز القصر الذي يحوي العديد من الأقسام والجوامع، يحوي البنايات التي شيدها السلطان عبد الحميد،... قصر شاله كوشك والأمراء الذين يستظلون بأشجاره وأزهاره، القرن الذهبي

الذي يشير في الشجون أكثر مما يشير لدي الملاحظات الصارمة، هذا الخليج الذي يقسم المصب على هيئة قرن، وينعطف مائلا نحو المدينة .. وفي المدى الممتد تبرز إسطنبول أوروبية على طبق كبير مثل كعكة، الميناء الطبيعي للعالم القديم، مركز القوات البحرية البيزنطية والعثمانية، ومرفأ سفن الشحن التجارية.

كنت أسير على غضارة العشب في المتنزهات الجذابة المخططة على الشواطئ، الشمس الرائعة التي تهبط أخاذاً على الماء. أين فينير .. أين بالات .. وسط هذه الأحياء المتاخمة للطريق المؤدية إلى القرن، الشوارع التي تتزاحم عليها البيوت الخشبية القديمة، الكنائس البيزنطية العظيمة، وتاريخ المعابد العثمانية، هناك في هذه البقعة التي تزورها الشمس يستقر النظام الأبوي القديم منذ فينير وأعلى القرن الذهبي حتى يصل إلى أيوب، كنت أشهد تبعث الأحجار العثمانية المزخرفة أمام مقهى بيير لوتي، وفي أعلى التل الذي يشرف على الضريح وعلى القرن الذهبي، كنت أشهد المكان الرائع للتمتع بهدوء المنظر، مشهد الهندسة المعمارية العثمانية، مشهد الحجاج المسلمين من جميع أنحاء العالم وهم يزورون يوب كامي وقبر أيوب، حاملين راية النبي.

هذا هو المكان المقدس في الإسلام، المقبرة الشعبية الهائلة الحجم، والتلال المحيطة بالمسجد منقطة بشواهد القبور.

*

هبطت من حجرة الفندق إلى الصالة عبر السلم، كانت السيدة الصغيرة جالسة وحيدة على الأريكة، واضعة ساقاً على ساق، تشرب كأس عصير، شاردة الذهن وتمسك سيجارة في يدها وتنفخ الدخان في

الفضاء، هازةً طرف حذائها الأنيق هزات خفيفة، اقتربت منها،
فاستقبلتني مبتسمة:

- ما اسمك؟ قلت لها بالتركية.

- سعاد. قالت وهي تنتظر أن أقول لها شيئاً آخر.

تلعثمت.. أخرجت كتاب تعلم التركية من جيبي وحاولت أن أعثر
على كلمة مناسبة.

ضحكت وقالت بالإنكليزية، تكلم بالإنكليزية أنا أفهمها.

خرجت.. من الباب وأصبحت مباشرة في شارع جيهان.. أمام كشك
التلفون كنت أسمع "السلام عليكم.. السلام عليكم.." الجملة الأثيرة
التي تربط اسطنبول بالإسلام، توقفت عند المقهى وطلبت الشاي التركي
بالاستكان.. شربته وأنا واقف.. بينما كان النادل ينظر نحوي وبتسم دون
أن يقول شيئاً..

هذا المكان هو (سيميت سراي) جاء مرة أحد الشعراء في مغامرة
جنونية، سكن أول الأمر في مدينة أسكشيخير بين أنقرة واسطنبول، عمل
بائعاً للصحف، صيادا للسماك، عاملاً في معمل للسترات الجلدية،
تسكع في أماكن الاصطياف، عمل دليلاً للسواح، جرب كل شيء،
الأسعار المضحكة الأجور القليلة، عاش في في الأحياء الفقيرة الوسخة،
في الفنادق الرخيصة، نام مع العاهرات الريفيات، تسكع في الشوارع
المضاعة المليئة بالناس، سار في الشوارع الخاوية والمعتمنة... المبلغ الذي
قبضه عن كتابه الأول سكر به مع عاهرة وفي الصباح قفز نحوه ثلاثة
وأسقطوه أرضاً، أخذ يقاوم، كانت معه محفظة وفيها الدولارات وجواز

سفره، ضربه بأرجلهم.. فقد وعيه استفاق في الشارع المعتم ولم يجد المحفظة في جيبه، وكذلك لم يجد الحقيبة.

*

سرت في الشارع، تزاхمت مع الناس، ضحكت مع الفتيات الواقفات أمام الفرن، كلما أرى صبية جميلة أسألها السؤال المحير ذاته كيف أصل إلى جسر غالاطا.

تقف أمامي حائرة.. تحاول باللغة الإنكليزية وبالتركية وبالإشارات إفهامي كيف آخذ الطريق الصحيح بالمترو أو بالباص أو بالتاكسي.

-طيب أين البازار الكبير.

مرة أخرى.. مرات.. مرات.

أتملى بوجهك.. بجمالك.. كما أتملى بوجه اسطنبول الشابة الأبدية.

ستعودين أيتها الشابة مع الجيش العثماني القادم من اسبارطة، تعودين إلى سلاطينك، ودواوينك، وورقك، وجيوشك، وخيولك، تعودين من البحر إلى مشاغل وهموم كثيرة، تعودين إلى ما يعنيه آدم أودسن مكوسيه الشاعر البولوني الذي ولد في بيرا ومات في اسطنبول في القرن التاسع عشر. الشاعر الذي عاش في اسطنبول وكتب عنها في منفاه، وكتب عنها في الحرب وفي السلم، كتب عنها لأنها إناء السلاطين المصنوع من أجود الفضة، لأنها ماء هيراقليدس وهو يجري بين الأصابع الخمسة، لأنها صبية عارية وسط رياحين وزهور رقيقة ومساقط مياه، لأنها الإمبراطورة الشابة التي تعرضت في الحرب لطعنات سكين، لأنه أحب شعراءها، وفضول العلم في مساجدها مثلما كان فضول العلم في كنائسها قبل ألف عام، واسطنبول ليست بيوت الأثرياء في بيوك

أده فقط إنما هي بيوت الدعارة، والمواخير الشقية... وحين أقف في
بايوغلو أسمع صوت فقراء اسطنبول وهو يحاصرني، بل تحاصرني ربة
الخلافة وأنا أكتب عنها، ومشاهد الناس المزدهمين على كشك الهمبرغر
يشير في المشاعر الصاخبة، ويحفز لدي الملاحظات الصارمة.
اسطنبول هذه الكلمة-السحر، الكلمة-المفتاح التي تثير خيالي نحو
الناس، والديكورات المزخرفة والوقائع الغريبة المرمسة، تثير خيالي نحو
أحداث عظيمة تتفجر بين يدي كلما أقلب كتابا للتاريخ، تتفجر بين يدي
صورها العارية البراقة، لأنها ممتعة وشهية مثل محظية في حرمك
السلطين.

-III-

شعراء تحت البازار الكبير

(تعلمت أشياء ما كان ينبغي أن أتعلمها أدركت أن الزمن محايد
طرحت أسئلة ما كان ينبغي أن اطرحها قطعت كفنا من جلدي لقد منعت
من تجاوز حدودي قلبي المسكين هو مقهاى الأكثر عزلة)

الشاعر التركي Mettiu Alhole

*

هناك.. في اسطنبول، في بايوغلو، في شارع الاستقلال، الشارع
التاريخي الذي يضم المكتبات والغاليريهات والمطاعم والسينمات
والمقاهي والمسارح، كنت التقيت الشاعر التركي الشاب أحمد أورهان هو
وصديقه الشاعر البرازيلية باولا خانفيير قرب مكتبة صغيرة في
الزقاق، ومثل تمثال لأحد السلاطين العثمانيين في سراي طوبقابي وقف
الشاعر التركي أمامي بوجهه الحذر، وعينيه اللامعتين، وحركته
المتباطئة، وهو يدخن بهدوء ويتحدث لي بصوت أجش عن أدباء تركيا:
ناظم حكمت ذي النبرة السياسية المحتدمة.. عزيز نسين بسخريته
الفلكلورية وعينيه الشبيهتين بعيني حزقيال.. أورهان باموق بذكائه

الضاري وهو يكتب عن الاختفاء الغامض للبسفور.. أجا إيهان وخيالاته المستحيلة وهو يصرخ:

قلندر.. اسم سفينتنا التي تسابق الحيتان..

ونديم غورسيل الذي نام مرتعشا أمام إلياذته الجديدة، في تركيا العميقة، تركيا الجنوب.. وأورهان ولي الذي بكى في قصيدته وقال:
لا تقتليني يا زوجة السائق..

كنا وقفنا هناك، بين ضجيج المارة الطموح، بين صخب الباعة الذي لا يمكن إسكاته، بين أمواج العطور المنبعثة من دكان ضخم للأزهار، نتحدث وننظر للعشاق الذين يمشون وهم يعيشون غبطتهم اللامحدودة، وتسلياتهم الغامضة في صيف اسطنبول الطويل، وعند الملاهي كانت الشبيبة التركية مثل الشبيبة الإسبانية القديمة تضحك وتحيي على الأرصفة شبابها المتبطل، وقفنا هناك.. في المدى الأوربي من المدينة التاريخية وقد غمرنا النور الفضي للبحيرات الراكدة بالكامل، وعند مدخل العمارة هجمت علينا ريح باردة ونقية كأنها مرت على الثلج وعبرت متاهة المرمز والحصى، ومن أعماق الشارع التاريخي كان الصغير الأجش والطقطقات القاسية للترام الصغير الذي شيده السلاطين في القرن التاسع عشر، يتقدم بثبات متحمس.

اتكأنا على حجر أبيض، صمتنا قليلا، ابتسمت صديقتي ابتسامتها العذبة وقد تعلق بذرعي، ثم انحدرنا إلى مقهى سراي المقابل لمكتبة رامز وجلسنا في الظل العميق والسميك عند الرصيف، وأخذنا نشرب قهوتنا بهدوء، فحدثتهم أنا عن الأدباء العرب: نجيب محفوظ الذي قرأه يشار كمال وسخر منه، عبد الوهاب البياتي الذي هرب من بغداد في

الخمسينات وعاش في شقة صغيرة قرب محطة تقسيم المزدحمة ليحيى أيامه الصاخبة مع نبيذ بورصا وناظم حكمت والنساء، وعن أدونيس الذي حقق شهرته العالمية في المتربولات الغربية وقد قرأه الأدباء الأتراك بترجمة سالم فندقجي... وعن أحمد هاشم الشاعر التركي الرمزي من أصل بغدادى والذي قطن في اسطنبول حتى مماته، بعد أن هرب من بغداد وسجن نفسه في حدود العالم التي ثبتها هيرودوت دون أن يتخلى عنها، وقبل أن يموت كتب مستاء عن الشحاذ البغدادي المجنون الذي كان يجلس على قارعة الطريق متربعا ويرطن باللغة الإمبريالية، وحين أصدر ديوانه "ساعة البحيرات" سخر ناظم حكمت من ذكائه المدهش بشكل لاذع، وسماه شاعر الضفادع..

تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن حمى الشعر التي أصابت بعض السلاطين في ظل الظهيرة المصمت والمذيب، تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن الشعراء الذين غادروا بلدانهم وقطنوا في اسطنبول وكانت طيور الغاق الضخمة تصرخ فوق رؤوسنا وتتأرجح على السطوح، تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن اسطنبول الآسيوية والأوربية أمام الواجهات الزجاجية المزينة بالصفائح الشمينة والمنقوشة بإتقان، تحدثنا طويلا عن غرابة الشعراء والفنانين الذين سكنوا في تقسيم ولالي وعسمان بيه أمام الباحات المتروية والنور المبعثر والوحشية المترفة والزاهرة للحقبة العثمانية الماضية، وقبل أن نفترق، أهداني هذا الشاعر التركي الغريب الأطوار أحد دواوينه المترجمة إلى الإنكليزية، وقررنا أن نلتقي في المساء مقترحا علي هو وصديقه نزهة على رصيف البسفور.

-IIV-

بون هوياج

عدت إلى الفندق عن طريق جيهان جادة سي، الشارع الصغير الذي يمتد بموازية جادة الاستقلال في بابوغلو، ويفترق عنه إلى حافة فندق فيلا زويرخ حتى يصل رصيف البحر، كان الهواء البارد المحمل بالشذى والرضا يضرب وجهي، وكان المارة يتزاحمون على مطعم صغير يقدم الأكلات التركية المحلية بثمن رخيص، وعلى مقربة منه بار صغير ورخيص كان السرياليون يجلسون على مائدة قريبة من بابه، يجلسون هناك ويشتمون كل من يخالفهم الرأي، ويجلدون كل شاعر قديم من هالبيدي أديب أديفار إلى أحمد هاشم، مررت وسط ضجيج الأصوات والضياء الساطع وتلامس الأيدي الخفيف وبحثت عن حسين مردان عند مروره باسطنبول وسط كؤوس الجمعة والصحون المحطمة حيث ينهار المحيط بفرقعاته الجنونية وشعره المتصعلك، كان المكان يستعيد كامل حقوقه، ومحبرة الشعراء تغلق فوهتها بسدادة شمبانيا، كما قال الشاعر البولوني آدم هودسن مكوسيه الذي ولد في بيرا وتوفي في اسطنبول، ربما مر في هذا الطريق، وهو يكتب قصائده الغنائية والفنطازية، وربما

سكر هنا في هذا البار، هو وزمرة الصعاليك المنفيين، سكر وغسل يديه من ماء المراحيض.

*

مررت بالمطاعم الكبيرة التي تقدم أكالات بورصا ومرمريس، والتي وضعت كراسي الخيزران المنجدة على الأرصفة، مررت باستوديوهات التصوير التي ترفع إعلاناتها في المربعات الألمنيوم، مررت بدكاكين الحلاقين وقد علقت على واجهاتها آخر قصات الشعر في العالم، مررت بالغالبريات الضخمة التي تعرض اللوحات الزيتية والمائية على جدرانها، وعند باب المسرح البلدي كان هنالك الفنان التركي الذي وقف ببذلته البنية وخوذته القماشية وقد تدلت حقيبة صغيرة سوداء من مقود دراجته، وأمام فندق فيلا زوبرخ المطل على البحر وقف رجال الشرطة الطوال بملابسهم الزرق وصيحاتهم الأعجمية وأخذتهم السود المسمرة التي تخطط الإسمنت، وفي نهاية الشارع كانت موسيقى الروك تنبعث من أحد الدكاكين الصغيرة حيث تجمعهم الشباب والصبايا وهم يتمايلون ويرقصون، ومن رصيف البحر القريب من الشارع كانت عذوبة الرطوبة المالحة تأتينا ممتزجة مع الحر اللاهث، ونفير صفارات البواخر الهجين والوحشي.

في حجرتي المطلة على الشارع، تمددت قليلا على السرير بحيث كان يمكنني أن أنظر من الشرفة العريضة إلى اسطنبول، نظرت إلى الطيور البحرية الصاخبة التي وقفت على السطوح وقد أخذت جارتى التركية ترمي لها فتات الخبز، نظرت إلى البواخر التي تمخر الموج وتطلق صفاراتها الوحشية في الفضاء، ومن بعيد كنت أنظر جامع السلطان

أحمد وراء خليج البسفور بمآذنه الست ممحوا بضباب خفيف، وعلى مقربة منه في المدى الأزرق يلوح طوبقابي سراي وآيا صوفيا كلوحة انطباعية غمرتها الشمس بأشعة ذهبية تنتشر على قممتها مثل غبار، .. مددت يدي إلى الطاولة الصغيرة إلى جانبي وتناولت ديوان أحمد أورهان، وأخذت أقرأ قصائده القصيرة المترجمة للإنكليزية.

كان ديوانه بطبعته الأنيقة صغيرا، تزين غلافه الصقيل لوحة زيتية رسمتها فنانة أمريكية تقطن في أنقرة وليس في اسطنبول، وكان يحمل عنوانا غريبا أبعد ما يكون عن رؤى وحياة اسطنبول، هو "اللعبة الثانية"، ولكن ما أن أخذت أقرأ قصائده القصيرة الواحدة تلو الأخرى، حتى شعرت بأنني أغرق في ليل تركيا الأسود الطويل، شعرت بأنني أسبح وسط لغته التائهة الغامضة وأفكاره التتربة الغربية المليئة بالأسرار، كان هذا الشاعر التركي الغريب الأطوار يلتقط الأفكار الأكثر غرابة ووحشية ويمزجها بلهجته الشخصية وبلاغته المحتدمة والمنظمة، قرأت في الطابق السابع من فندق أنيق في اسطنبول شعرا محتدما عن حياة اسطنبول المبللة والتي تلتصق بالحياة التصاقا مثلما يلتصق الوسخ بالجلد، شعرا ذا نكهة تركية مخمرة منذ قرون، شعرا شهوانيا يعيد المشاهد الإكزوتية في أزياء التي كتبها بيير لوتي في اسطنبول في بداية القرن الماضي إلى المشهد الحالي، غير أنه كان شعرا غامضا مثل شعر مولانا جلال الدين، شعرا قلقا ومنفصلا أيضا، أما مواضيعه فكانت هي العجائبية الأسوية المنمنمة التي يرونها بتعبير حاذق ومكتمل، وبأسلوب يجد طريقه السهل نحو التلاؤم السيئ مع العاطفة، وهو أمر ضروري دون شك للشعر الرمزي، وما يخفف هذا الافتتان الهدام بكل شيء هي هذه الحساسية

الطرية العصية على الوصف، وهذه الشعبية التي تذكر بقصائد أورهان ولي النثرية، والتي كان يطلقها في الثلاثينات من القرن الماضي على مشاهد اسطنبول الحية، مثل قصيدته التي كان يقول فيها:
(أنت حسناء في المرأة وحسناً أخرى في الفراش، تزيني وعاندي،
وتعالى إلى دكان المهلبية عند انعقاد السوق).

*

في المساء التقينا مرة أخرى، وذكرته بقصائد أورهان ولي النثرية والتي نشرها مع أوقطاي رفعت ومليح جودت، هز رأسه برضا تام، وحدثني عن بيان أورهان ولي الشهير عن قصيدة النثر، وكيف كان يرى أن التناغم يجب أن يكون خارج الوزن والقافية، فقد كان يرى منذ ذلك الوقت بأن التناغم في النثر يأتي رغماً عن الوزن القافية، ذلك لأن الوزن والقافية يشكلان تناغماً يخاطب الأحاسيس المتصحرة.. وأطلق ضحكة خفيفة وهو يردد قصيدته:

(هَمَّكَ الأسف على يومك، حل المساء، وغابت الشمس إذا لم
تسکر فماذا ستفعل؟).

انطلقنا نحن الأربعة من تقسيم نحو شارع الاستقلال: جيهان، الرسامة القادمة من أزمير، الشاعر الغريب الذي يحمل كتبه في حقيبة صغيرة علقها على كتفه، صديقتة الشاعرة البرازيلية التي تشبه لوحة انطباعية، وأنا.

في البدء قررنا أن نجلس في مقهى جيمس جويس، ثم غيرنا رأينا وسرنا مسرعين في الشارع الذي كان يضم الأتراك الساهمين والمقرفصين على كراس صغيرة بلا مساند، قالت جيهان:

"قبل قرن كان الشعراء الأتراك يجلسون هنا متلاصقين، وظهورهم متكئة على الجدران، والغلايين في أفواههم..."

المقاهي المكسوة، الأرائك المنخفضة، المواعد الموضوعة، والتركي بأنفه المشروم يصنع القهوة في كنجات صغيرة من النحاس.

"استكلال جاده سي..." قال الشرطي الواقف أمام أحد السياح وهو يحمل خريطة لمدينة اسطنبول بيده، هذا الشارع الواسع الموازي لبولفار طراباجي الذي ابتنى فيه الويسيو جرتي قصرا كبيرا بحدائق غابية حينما كان يحكم بيوغلو في القرن السادس عشر، هذا المكان التاريخي الذي منحت فيه السلطات العثمانية للأوروبيين تراخيص بناء قنصلياتهم، فاشتهرت المحلة السلطانية القديمة منذ ذلك الحين بطرازها الأوربي، وعماراتها الحديثة، وأشجارها الضخمة التي تقي السياح من لفحة الشمس. استقلال جاده سي... شارع المثقفين والفنانين القادمين من كل أنحاء العالم، قالت البائعة الشابة المثيرة والتي تعني بخصلة صفراء مصبوغة متدليلة على وجهها وتزيحها بغنج بيدها.

"هل رميتم بذور الحب للطيور في ساحة تقسيم؟" سألتني بابتسامة رقيقة وهي تناولني قدح العصير.

كنا توقفنا قليلا في ساحة تقسيم لنرمي البذور للطيور البنية المتجمعة هناك، ومن وسط الساحة الصغيرة كنا نتطلع عبر المشهد المقابل إلى مركز أتاتورك الثقافي، وفندق مرمرة الشهير ومحطة المترو... في هذه الساحة التي تتجمع فيها الطيور لتلقط الحب من أيدي السياح كان السلطان محمد قد شيد تقسيم المياه الذي يتشعب ليروي سكان مدينة اسطنبول أوائل القرن الثامن عشر، وبعد أن سرنا مسافة قصيرة، توقفنا

لنقطع تذاكر الترام القديم الذي يقطع شارع الاستقلال من بدايته إلى نهايته، قال لنا قاطع التذاكر المسن بطاقيته الصغيرة وبزته الخاصة بعمال السكك، بأنه يعمل في هذا المكان منذ نصف قرن تقريبا، ضحك بشواربه الحليبية البيض وودعنا بفرنسية جميلة:

"بون فوياج".

انطلق الترامواي التاريخي الذي يمتد عمره إلى أكثر من قرن في شارع الاستقلال، وهو يدق بجرسه لينذر العابرين.

على اليمين كانت القنصلية الفرنسية ببوابتها الكبيرة، وبنائها المميز، وقد تجمع الشباب على دكايتها المرمرية الكبيرة وهم يحملون روايات فريدناند سيلين ودواوين هنري ميشو، إلى جانبها الكنيسة الكاثوليكية القديمة وقد خرج السياح من بابها الجانبي، وعلى كلا الجانبين هنالك الدكاكين الكبيرة بالواجهات الزجاجية، المطاعم التي تقدم المشاوي التركية للزبائن، السينمات التي تعرض لوحاتها صور المطرب الشعبي إبراهيم تاتلس، البارات المعتمدة الهادئة، الممرات الصغيرة التي تتفرع من الاستقلال جاده سي والتي تصل بولفار طارالباجي، مثل "سيسيك باساجي" المشيد على طراز الركوكو في العام ١٨٧٦، والذي يضم المطاعم الكبيرة، سوق السمك، الدكاكين الصغيرة التي تباع التحفيات والكتب المستعملة، وعلى اليمين بنايات السفارات الأوربية، وفي نهاية الشارع غالاتا ساري، هايشول المشهور، البنك التركي ومسجد بايوغلو، والنساء الجميلات بالملابس المختصرة اللواتي يتسكعن حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي كل زاوية من هذا الشارع فنانون يأكلون الوجبات الخفيفة ويشربون البيرة، عازف غيتار يعزف ويغني بصوت عذب وعلى مقربة منه يرقص عاشقان.

-٧-

سراي العالم القديم

(كم سنة مرت؟ كم سنة مضت لم أنظر فيها إلى بحرك؟ ولم أرَ فيها أناسك، ولم أَمْش في أزقتك وشوارعك، ولم أعبر فيها ساحاتك؟ والآن في زقاق فيغور في باريس، بعيداً عنك أنا معك.

قبل قليل رأيت في المترو ملصقاً شرُعت فيه آياصوفيا بملكتها أجنتها للريح، أشرعت للريح أجنتها تلك القبة التي يقال إن طينها مجبول ببصاق حضرة محمد. وفي ملصق آخر مياهاك صافية رقراقة).

نديم غورسيل

حبيبتى اسطنبول

*

سألتني إحدى البائعات فيما إذا كنت رأيت سراي بيلربسي المطل على الساحل الآسيوي من البوسفور الذي تم انشاؤه في القرن التاسع عشر من قبل السلطان عبد العزيز لاتخاذهِ مصيفاً والذي يعكس الميول والأذواق المختلفة ببياض وخاصة في وسط الحديقة المليئة بالمانوليا (المنغوليا ؟

*

كنا جالسين في سميت سراي نأكل الكعكة ونشرب الشاي، كانت رواية نديم غورسيل "صيف طويل في اسطنبول" بترجمتها الفرنسية على الطاولة، وإلى جانبها روايات أخرى، كلها تتحدث عن اسطنبول، أو تدور أحداثها في اسطنبول، ومثلما كان أحمد راسم يصف مقهى ياكومي القديم في ليلة من ليالي رمضان، حيث كان صبي المقهى يرتدي طربوشا أحمر وجاكتا بشنيات خضر وينزلق على حزامه الأخضر الفاقع خنجر، كان السياح يبحثون في المكان عن مقهى أيوب، أو المقهى الذي جلس به يوما بيير لوتي وسمع موسيقى الماندولين، أو يبحثون عن مقهى السيرافيم الواقعة في بايزيد بالقرب من البازار القديم قرب صالون الحلاق، حيث كان الأدباء الأتراك يقضون جل وقتهم هناك: نامق كمال، عزيز بك، أبو زيا توفيق، فنديلو توفيق باشا، وفي مستهل هذا القرن التقى الشاعر عبد الحلیم مدوح بهاليت زيا وهو كاتب دخل إلى المقهى للمرة الأولى، ومثل شاعر رومانتيكي قد سرح شعره الأسود بأصابعه وشرب القهوة هناك.

المدن لا تكون كبيرة بشوارعها إنما بتمائيل الشعراء الذين سكنوا بها..
رددت باولا خانفير ما قاله ناظم حكمت قبل عقود.

ندیم جورسيل الذي جاء من جازيا نسيب، من الجنوب، وعاش في اسطنبول، رواياته مصفوفة في المكتبة: صيف اسطنبول الطويل، الترومواي الأخير، قصة الفاتح، الدرويش والمدينة، وكلها بالتركية، وعلى مقربة منها بعض الروايات المترجمة إلى اللغات الأوربية، قلت للبانعة الشابة في مكتبة شكسبير، بأني قرأت بعض روايته بالعربية، وبعضها قرأتها بالفرنسية.

أذهلتني فيها سرايات الجنوب، مشاعر الحنين إلى تركيا العميقة،
تركيا الجنوب، أو تركيا الحقيقية. عدة ارتحال البدو، سراب القبائل
الأسبوية التي نزلت من تلالها كي تصل ضفاف البحر، الروح المزدوجة
للترحال.

هذه إلياذته الجديدة مكتوبة بنغمة مأساوية، نغمة صادرة من قلب
تركيا الممزق بين آسيا وأوروبا، نغمة مأساوية صادرة من جغرافيا لا توجد
إلا في الأطالس، أو من جغرافيا المكان الذي لم يعد قائما، من جغرافيا
الذكرى والسراب، إنها رحلة حقيقية لاسطنبول، رحلة شعرية لاسطنبول
التي تترك في الأعماق ملح البحر، قونيا هناك، قرقرات الطناجر وقبر
مولانا جلال الدين، في القرن الذي شهد انحطاط قوة السلاجقة، حيث
التقى مولانا جلال الدين بشمس تبريز درويش المتصوفة المعروف، القبائل
التي لم تتخل أبداً عن حياة الترحال في منطقة جبال طوروس حيث
أمضى يشار كمال طفولته هناك.

من جازا نثيب جاء نديم غورسيل إلى اسطنبول، جاء إلى بايوغلو
.. الهندسة المعمارية الأوروبية منذ قرن تقريبا، نفق أوروبا العظيم،
التانيل الذي شيده الفرنسيون في العام ١٨٧٥، غالاتا وبرجها الكبير،
الحياة المرفهة الحضرية في الشارع، مكتبات، سينمات، أسواق، المحلات
التي تبيع الحللي الزائفة الرخيصة، وجبة السميت بالشاي أو وجبة الخبز
بالسمسم، الشارع المكتظ بالنساء، العودة بالترام الأحمر، المرور من
السفارات، غالاتاساراي، البيئة الملونة لباليك بازاری (سوق السمك)
حيث أكل هناك لورنس دارل طبق العصيد، ومطاعم سيسيك باساجي أو
(مرور الزهرة) حيث كان نيكوس كازانتزاكي يصادق النشالين. شارع

الكنيسة القديم حيث سار أبطال غورسيل هناك وهم يحملون أكياسهم،
درابيريس ست ماري التي تعود إلى العام ١٧٨٩ حيث مرت النساء
المسيحيات وعبرن الباحة، الكنيسة الفرانسيסקانية سنت أنتوين التي
تهدمت وأعيد بناؤها في العام ١٩١٣، لقد مر الشعراء في ساحة
تاكسيم.. مر توفيل غوتيه من الميدان التركي الكبير.. جلس
السراليون في الساحة الضخمة المفتوحة على الآفاق، حيث تتجمع فيها
الطيور والفقراء والسياح، صعد هنري ميشو من كراج اسطنبول الحديثة
والمزدحمة أبدا بالعابرين وذهب إلى بورصا، توقفنا نحن في الساحة
الكبيرة المتوجة بنصب أتاتورك العظيم، ذهبنا إلى المحطة الطرفية
الرئيسية للنفق الجديد، أكلنا في كراج الحافلات الصاخب الذرة المملحة
وشرينا الشاي، ذهبنا إلى مسرح اسطنبول وضحكنا عندما احتك
الصحفي الكردي بمؤخرة المثلة الشابة، أخذنا صورا كثيرة في المتحف
العسكري مع الشرطة المهذين والذين لا يحملون المسدسات ولا العصي
الغليظة، بقينا في مركز حياة الليل حتى آخرة الليل، سكرنا في
الحانات.. رقصنا مع العاهرات في النایت كلاب، وحين سقطنا على
الرصيف أخذت لنا باولا خانفير صورة تذكارية كشاهد على عشاق
الفنون البوهيمية.

وها هي رواية نديم جورسيل صيف اسطنبول الطويل أمامي.
قلت لأحمد أورهان أنا أعد هذه الرواية دليلا سياحيا لاسطنبول.
كنت أبحث فيها ذلك اليوم عن الوصف الماكر لبازارات المدينة مثل
البازار الكبير، بازار التوابل، بايزيد، سركجي، أسواق الأكسراي،
البازارات هي العنصر الطاعي الذي لا يمكن مقاومته، لا لأن رؤية

اسطنبول رؤية كلية هي هدف لم يستنفذ بعد، إنما لأن أحداث الرواية الغربية المدهشة تتحرك على إيقاع وصف مذهل يمسح المدينة مسحاً كاسحاً... هناك الأسواق التي أحبها: سوق قابلي كارسي أو البازار المسقف، متاهة الدكاكين في الممرات القديمة، ممرات وشوارع صاغة الذهب، شارع باعة السجاد، شارع صنّاع الطاقيات. المركز التجاري للمدينة القديمة، السوق المسقف، سوق الحرف التركية: السجاد المشهور، والسيراميك المرسوم باليد، والسلع النحاسية، النراجيل والغلايين التذكارات والهدايا الساحرة. كنا نسير في الشوارع حيث تضيء المجوهرات الذهبية وجوهنا، هناك الملابس الجلدية المدبوغة، تحف بيدستن القديمة، كنا نبحث فيها كما لو كنا نبحث في فوضى التاريخ عن كنز... نسير في سوق التوابل وراء مسجد أمينونو، خيال الشرق الصوفي القديم ينهض على روائح القرفة، والكرابوا، والزعفران، والنعناع، والزعرتر.

قلت له وأنا أشير إلى رواية غورسيل: كل شيء في هذه الرواية يتحرك حركة قلقة مهتزة، أما ذات السارد المخيبة والواهمة فقد كانت حاضرة حضوراً كلياً.

قلت لأحمد أورهان: إن قدرة غورسيل على التحكم بموضوعه أسرّني بشكل كامل، لم أكن قادراً على الصمود أمام هذا المخزون الثري في اللغة، وهذا التجرد العظمي الذي يجعل اسطنبول حارة ومشبوبة، إلا أن أحمد أورهان كان له رأي مخالف تماماً، لم يقل لي أنه له رأي آخر بلهجة لم تكن متعاطفة مع غورسيل حسب إنما بلهجة متحمسة لرواية اسطنبول لأورهان باموق أيضاً.

-VI-

اسطنبول باموق

اسطنبول باموق شيء آخر، هي تاريخ الإمبراطورية الذي يجري ساخنا إزاء الانزياحات الكبرى والتي تعصف بالمدينة عصفاً، إن كل مكان في اسطنبول يتم إخضاعه في رواية باموق بصورة ضاربة للتعبيرات التاريخية المحتمدة، كل مكان في اسطنبول يبرز لاذعاً، جامحاً، ملفعاً، قدرياً، وإمبراطورياً أيضاً، وينظم باموق بلهجته المتوازنة الصورة الصامتة لاسطنبول والشراسة اللاأخلاقية التي لا يكبح جماحها كايح.

نصوص باموق خليط من فلسفة فانتازية قديمة وروح بورخيسية حديثة، نصوص باموق ساحرة بلغتها الهذيانية، بلغتها الضبابية المهجّنة، وهي مزيج مدوخ بين العقلانية الأوربية وهلوسة التصوف الإسلامي، لغة باموق ساحرة لأنها متاهة من الاستعارات، والتعرجات، والمجازات، والإليغوريات التي تقود إلى متاهة أخرى، وهي معقدة لأن التاريخ التركي معقد ومتشابك أيضاً، ولا يمكننا أن ندرك هذا التاريخ عبر التكهن والابتكار، بل نشعر بأنفسنا ونحن نتورط معه على الدوام في صناعة حكاياته، والتحول معه من مكان إلى مكان، نبحث معه عن

معانيها ومفرداتها وأماكنها، وأشياءها، كل شيء في روايات باموق خاضع إلى المعنى الذي ينكتب للتو، كل شيء خاضع للأسلوب المغناطيسي المربك، للأسلوب الذي يتحدى قناعاتنا، كل شيء يحرضنا كما يحرض الأبطال على البحث عن هوياتهم وحقيقتهم، كل شيء يحرضنا على طرح الأسئلة حول ثنائيات الشرق والغرب، حول المركز والهامش، حول التشاكل والتنوع، حول التشابه والاختلاف، حول الواقع والخيال، حول الدلالة وما يناقضها، حول الالتباس والعبث واليقين، حول الأسس الحقيقية التي تصوغ كياناتنا وشخصيتنا وخصوصيتنا.

اسمي أحمر .. هي النزعة الطامحة لمراجعة كل ما يتعلق بالصراع بين المنظومتين العلمانية والدينية المتشددة، لا يمكن لأحد الخروج من تأريخه، لا يمكن لأحد أن يتخلص من صدمة الحداثة، باموق يعيد تفكيك الواقع ويعيد تشكيله على ضوء ما توفر لديه من تاريخ قديم لجودت بك وأولاده، باموق يتحرك بسرعة كبيرة ولا يتوقف إلا عند جماليات الفن الإسلامي والمؤثرات الثقافية الغربية المدمرة، قلت لهم: "أنا أحب روايات باموق.." رغم محاكتها الماضي البعيد و احتوائها على زمن لم يعد فاعلاً في الحقيقة.

ها هو باموق أمامي .. احمر وجهه حين رددت عليه الاتهام الذي وجهه له أمين كولسان الصحفي في صحيفة حرية، وأحمد تانير كسلالي بأنه يهاجم المؤسسة الأتاتورية السياسية.

نحن أيضا تعصف بنا نحن أيضا أزمة الهوية قلت له وأنا أشرب الشاي في مكتبه.. في اسطنبول يمكنك أن تتحرك على الخلفية التي تتحرك بها رواية جودت بيك، الملحمة العائلية التي يدور موضوعها حول

حياة إحدى العائلات البرجوازية في مدينة اسطنبول المكان الذي يصفه باموق بانعدام التناسق وانعدام العلاقات الهندسية.

كنت عرفت اسم باموق أول مرة من تعليق فريدريك جيمسون على «الكتاب الاسود» و«الحياة الجديدة» اللتين عدهما جيمسون الأقرب إلى الأعمال الروائية ذات الرموز الوطنية السياسية لاعتبارات تتعلق بمنظوريهما السياسي العام الذي يشرح من خلالهما المؤلف إشكالية الحياة في المجتمع التركي المعاصر ومع ذلك فإن هاتين الروايتين تنتميان فيما يتعلق بالشكل والتقنية السريعة إلى روايات ما بعد الحداثة الغربية.

هذه هي مناورة باموق في سياق الرواية التركبية، الحكاية الشهرزادية التي تدور حول حياة عالم إيطالي شاب من القرن السابع عشر يخرج في رحلة بحرية من البندقية إلى نابولي فيقع في قبضة القراصنة العثمانيين، ويسوقونه إلى اسطنبول، ويبيعونه، فيشتريه عالم تركي، ويعامله معاملة حسنة خاصة بعد اكتشافه انه يمكن الاستفادة من خبرته وسعة اطلاعه، وفي تلك الأثناء التي يشعر فيها الخوجا بنوع من الانسجام الروحي مع عبده الإيطالي الذي يكشف له الكثير من أسرار التقدم التكنولوجي والعلمي الغربي من الطب إلى الألعاب النارية حتى يطمح السيد في تقمص شخصية عبده الأوروبي، وهكذا تنتهي الحكاية الشهرزادية بأخرى يتحول فيها القارئ إلى مستطلع لنمط الحياة الاجتماعية والسياسية في بلاط السلطان العثماني ويعرف المزيد من أسرار القصر وممارساته غير الحضارية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمعاملة السلطان لسجينيه العالم التركي والشاب الغربي اللذين يسخرهما من

اجل مصلحته ويحملهما على الاجتهاد في تصميم سلاح حربي يفشلان في صنعه رغم سعة اطلاعهما وعلمهما، والواقع أن هذه الرواية القصيرة تلخص في موضوعها أزمة العلمانية التركية التاريخية ومرحلة التجديد وتداعياتها الباعثة حتى على السخرية وإن كانت من الطراز الغربي.

يقدم لنا باموق في اسمي أحمر حكاية داخل حكاية، فهناك ثلاث حكايات تشكل رواية فكرية مليئة بالأسئلة التي تطرحها مجموعة من الفنانين والشعراء الذين يلتقون في أحد المقاهي في القرن السادس عشر ليحاكموا العصر، إنه النظر نحو الثقافة الشرقية الجامدة بالتناظر مع الثقافة الغربية المتحركة، وهي المعادلة الواقعية في الحياة السياسية والاجتماعية، وفي المستوى الثاني تنشغل الرواية بحل لغز جريمة خفية تطرح التساؤل حول هوية قاتل بطلها الفنان «اليجانت» الذي يقوم بتأجيره متعهد فني بناء على وصية السلطان العثماني، وفي المستوى الثالث فهي رواية حب، رواية حب رقيقة تنشأ بين بلاك وشكور.

-VII-

تجوال الملائكة قرب غالاطا

(وجهك الطرقات التي تنحدر نحو البحر
ملتقيات الطرق عدادات المياه وجهك
حينما انحني على وجهك أنا
وجهك الأسواق فاتحة مبكرة
أنت أيها النيلوفر بلا وزن ولا قافية)
الشاعر التركي إلهان برك Ilhan Berk

*

ذهبنا إلى مكتبة رامز قوتابفي أنا وأحمد أورهان وصديقه الشاعر
البرازيلية باولا خانفير، والتي كانت أشبه بلوحة انطباعية بملابسها
المختصرة وألوانها الباستيلية: قميص وردي، بنطلون أصفر، وحقيبة
قرمزية، في الطريق اصطدنا بسياح تانهين، بسابلة مرتبكين، بمشقفين
وموسيقين ورسامين من كل أنحاء العالم، وقفنا عند تجمع كبير يحيي
حفلا موسيقيا صاخبا على الهواء الطلق، كنت أستعيد تعبير الحياة مع
كلمات فنسان موزلي الكلاسيكية، حياة ملتهبة، ثقافة لا ينقصها
مفاجئة أو طارئ، فقد تعرفنا هناك على الروائية الإيرانية معصومة

اصفي وصديقها البلجيكي أندريه باري، وذهبا مع شاعر ياباني شاب في رحلة بالباخرة من سرعجي إلى جزيرة بيوك آده، سرنا في تقسيم، الميدان الحيوي لاصطنبول حيث كان يقطن الشاعر عبد الوهاب البياتي في الستينات، شربنا الشاي تحت الشقة التي كان يقطنها هنري ميلر بعد الحرب العالمية الثانية، سرنا في الطريق الذي سار فيه لورنس داريل، وشعرنا ذلك اليوم أن تجربة الثقافة هي تجربة الآخرين وقد أصبحت تجربتنا.

جلسنا في مقهى بيبير لوتي، نظرت معصومة في فنجان قهوتها باستغراق كامل، نظرت إلى اللوحات التي تزين المقهى بشكل زائف بإتقان، وتحدثت لنا عن معرفتها بالفنون التشكيلية، لم يكن أحد مهتما بما تقول سواي، غير أن نظراتي كانت تبتعد رغما عني وتصل إلى امرأة في الخمسين، بدينة، مسترجلة، تتحدث بشكل صاخب مع أحد الجالسين أمامها.

تنقل جيهان بيننا مثل فراشة.

تحمل على ذراعها سلة أزهار، تتخيلنا في عتمة باردة في طرف بعيد، تفكر بنا كماض لها، كما نحن نفكر باصطنبول كماض لنا، ننظر من الزجاج إلى الخارج الشمس وقد برزت لوحة المحل التي أمامنا مكتوبة باللون الذهبي الداكن، حمامات يلعبن الحب وأقدامهن الرصاصية بلون أقلام الرصاص، رجل يركض خلف امرأة يتوسل بها وهي تسير بخجل متوقع ولا ترد، سيارات التاكسي الصفراء عند الرصيف المقابل، زحمة صغيرة هناك، سائحات روسيات يقفن مع أحد المارة يتلفتن بشعورهن المصبوغة بلون كنار أصفر، وواحدة ترتدي القميص دون ستان

وشعرها مصبوغ بلون البود، كل شيء، يبتهج الآن في بايزيد رغما عني، يصخب رغم هدوتنا المفتعل، جيهان منفعة رغما عنها، أحمد أورهان منشغل بالإيرانية وهو ينظر إلى عينيها الشهويتين السكسيتين، كنت أشعر بفراغ مدهش، كنت أريد احتفالا وأغان مصلصلة، وصداحا غربيا في هذه اللحظة من يوليو، أبحث عن ريشة مثل دخان تلون هذا المكان، أو أنام مع جيهان في السرير حتى منتصف الليل.

*

سرنا في المساء عند مضيق البسفور الذي يفصل ويصل أوروبا عن آسيا، كنت ألمس الطراوة المالحة وهي تثقل بثبات خالد وأبدي المراكب المضاء بالمصاييح، أرى دخانا أزرق يصعد من فوق القلاع العثمانية في الهواء المذهب لأول الصيف، وأصغي لصراخ طيور البحر الخشن وهو يصعد مثل التشقق الوحشي لهدير البواخر، أشعلت الشاعرة البرازيلية سيجارتها، وب نظرة شبه مغمضة سألتني عن الأدب العربي، تحدثت لها قليلا.. وقبل أن أكمل تحدثت لي عن الأدب الفارسي..

جلسنا حتى آخر الليل على الرصيف، تعشنا في مطعم صغير قرب المسرح البلدي، وعلى مقربة منا كان الفقراء والمعدمون يجلسون على الأرصفة في الساحات العامة، وكان الحراس يقفون عند مداخل العمارات، وقرب المخيم الكبير الذي أقيم في الاحتفال بذكرى نصر الدين خوجا كانت الراقصة الجميلة ذات الصدر المرتفع تدور بدلال أمام التخت الموسيقي التركي، رقصت بخفة متناهية وبإيحاء كامل متميلة، متشبية في حين تهدلت خصلات شعرها الشقراء على جبينها الأبيض. كنا نحدق بها، بينما كان الجمع يحدق بنا، يحدق بمجموعة من الأدباء

الشباب الذين جاءوا من كل مكان تقريبا، جاءوا من تركيا ومن العراق ومن إيران ومن البرازيل، وقد شغلتهم سحناتنا الغربية عن رؤية اللحم العسلي الجميل الذي يتثنى على أنغام الموسيقى.

ليل اسطنبول الساخن.. ليل صيفها الطويل، وعلى مقربة من أكشاك البحر سرنا على الأقدام نحو شقة كائنة في الضاحية القريبة من شارع أيوب، ذهبنا لشاعرة أمريكية تقطن اسطنبول من عام تقريبا، أصدقاءها يمزحون حين تسألهم عنها، قطنت هناك لتكتب كتابا تاريخيا عن محظيات السلطان، صعدنا درجات السلم القليلة، طرقتنا الباب، خرجنا لنا شخص آخر، أدركنا أننا أخطأنا في العنوان، اعتذرتنا وهبطنا السلم، سرنا في الشارع ونحن نضحك من الخجل، لمدة نصف ساعة تقريبا ونحن نبحث عن الشارع دون جدوى. ربما غيرت عنوان شقتها .. ربما أخذت عالما الصغير وهربت.. وجدناها.. دخلنا عالمها الصغير، شقتها الخشبية المتواضعة، كتبها، ملابسها، وصديقها الصحفي التركي الذي ينام في شقتها، شابة.. جميلة، شبه مجنونة، مهووسة بالأشياء التاريخية، بالكتب القديمة، بالبخور، غرفة بائسة واحدة.. لا مكان لمجلس فيه.. جلسنا على الأرض.. أمامنا مطبخ صغير، وشرفة تطل على شارع ضيق، كتب ومجلات تركية وإنجليزية مكومة وقد علاها الغبار، خبز، قشور بيض مسلوق، فاكهة ناضجة، ملابسها خفيفة يظهر جسدها البض من خلالها، دون ستيان، دون كالسون، تدخن طول الوقت وتتكلم كثيرا.

*

كنا التقينا ذلك اليوم بالروائي التركي أورهان باموق، التقينا به في ساعة متأخرة من الليل، تجمعتنا نحن الخمسة على كومة من الصيد

المذهب، الوجبة المسائية، المودة الصاخبة وهي تذوب في هذا الكلام الملتهب، الثقافة في الحس الخالد والأبدى الذي يجمعنا، إنه المظهر الهادئ المضىء، الحياة الغافية في النظرة المترنحة، أستند بمرفقي على ركن من أسوار سراي طويقابي وأنظر إلى باقة زهر في انبساطها الممدد، غبطة الثقافة في تلمس حس لا يضارع، غبطة الثقافة في رواح الطيور وغدوها النادر، في صلصلة عجلات السيارات، في الضجيج المنفرد الذي تحدثه الأقدام، في صوت الموسيقى التي تتصاعد بعذوبة مع صوت باموق وهو يصف الفعاليات القروية الساذجة والنداء القلق في شوارع مدينة اصطنبول.

هذه نهاية مراسيم المساء: أصوات تتشاقل بهدوء، عنقود هزيل ينفرط حبة بعد أخرى، وأنا ألمس بيدي هذه الأحجار الثقيلة المصمتة، تائه في منفاي ومنهمك في الترهات الذهبية التي لا تنتهي.

-VIII-

السياح

(الرحيل إلى مكانك يا اسطنبول
تتحركين أنت ونحن نضحك)
الشاعرة التركية أولاي حكمت

*

ان التنوع الموجود في اسطنبول يبهر السواح: متاحف، كنائس،
قصور، جوامع كبيرة، أسواق، وجمال الطبيعة الذي لا ينتهي.
قالت لي حكمت: "لو اتكأت على أريكتك واطلعت على
انعكاسات ألوان غروب الشمس التي تنعكس على شبابيك البيوت
المظلة على الساحل لأدركت لماذا اختار هؤلاء الناس ومنذ مئات السنين
هذا المكان الخارق في الجمال".
كانت محقة بطبيعة الأمر كل شيء ساحر وخراب ورائع على نحو
غير معقول: فنادق حديثة، مطاعم ونوادي ليلية، وكباريهات وأسواق
تاريخية، ودكاكين.

مشينا ذلك اليوم في متاهات وأزقة سراي طوبقابي الواقعة في
مركز الامبراطورية العثمانية ما بين القرن الخامس عشر و التاسع عشر،

مشينا في هذه البقعة التي تقع في منطقة التقاء مياه البسفور والخليج وبحر مرمرة، قال أحمد أورهان: "لقد عاش السلطان وحرمة ووزراؤه هنا.. وأشار بأصبعه إليالبناء الحجري العالي، ثم تحركنا إلى سراي دولة باجة المبنية من قبل السلطان عبد المجيد الأول في القرن التاسع عشر، هناك على الساحل الأوروبي من البوسفور، وحين دخلنا الصالون بأعمدته ال ٥٦ الكبيرة والمنورة بالثريا الكريستال الضخمة بمصاييحها البالغة ٧٥٠ مصباحا، ووزنها البالغ ٥٠٤ طن اندهشنا.. كان شينا لا يصدق... شيء غير معقول حقا هذا الترف.. والفساد الثري، والعبقرية الثقيلة الخطى على أجساد ضحاياها، ولكن ما هي النفس البشرية وهي تملك وتسود، وهكذا افترقنا من أول نظرة، فبعضنا قال: يا للضخامة.. والبعض قال: يا للفن.. وآخرون قالوا: يا للسلطة.. أما الضحايا فقالوا: يا للعبودية.

*

رددت جيهان جملة لورنس داريل القديمة حينما زار اسطنبول:

" الحياة لا تستقيم في اسطنبول دون نزهة المركب على البسفور"

كانت المراكب تشق المضيق المتعرج الذي يفصل أوروبا عن آسيا، وكانت الشواطئ تعرض خليطا مبهجا من العظمة الكبيرة والقديمة، لقد أخرجنا هذا الجمال العذب والبسيط، هذا الجمال البري الذي يندفع من الوهج الأحمر الباهر والبحر الذي يلهث على الرمل ويسير ببطء نحو الصخور، ومن الضفة الأخرى تبرز الفنادق الحديثة قرب يالي، وتحجب فيلات الشاطئ الأمامية ذات الواجهات الخشبية، والقصور الرخامية التي تتأخر قلاع الحجارة الريفية، وفي المدى الأزرق الممتد تعبر المراكب الرائعة لقرى صيد السمك الصغيرة.

*

صعدنا نحن الأربعة الباخرة من محطة سيركجي على البسفور، في الممر الضيق، في الطريق تعرفنا على صحفية تركية ترتدي ملابس فاضحة وتتدلى كامرة صغيرة على صدرها، كان برفقتها شاب يعمل في صحيفة من صحف الجنوب، أخرج سيجارة مظفنة من جيبه وأشعلها، عرجت الباخرة إيما نونو بانتظام على طول الشواطئ، وتوقفت بالتناوب على الجوانب الآسيوية والأوروبية للمضيق. حلقت النوارس خلف المركب حين تجاوزنا قصر دولما باجا الرائع وانحدرنا قليلا نحو الرصيف، نهضت سائحة أمريكية لتحيي هذا الجمال الرائع على الطريقة الأمريكية خلعت كالسونها وأخذت تلوح به.

مررنا على المتنزهات الخضراء، على السراقات الإمبراطورية من قصر يلدز، وعلى حافة قصر سيرآغان الذي جدده السلطان عبد العزيز وقد تحول اليوم إلى فندق كبير، مررنا على الواجهات الرخامية المزخرفة والتي تعكس الماء الشفاف، توقفنا في الأوتاكوي، جمع من الفنانين والفنانات يعرضون لوحاتهم على جانبي الشارع، في ذلك الوقت وعند الوصول ذهب الصحفي التركي الشاب لمرافقة الأميركية التي خلعت كالسونها وانطلقا في مغامرة على ضفة البسفور، بينما عادت صديقتة وهي تحمل حقيبتها وتبحث عنه بين الوجوه... وحين ينست من العثور عليه صعدت معنا في المركب ورافقتنا حتى عودتنا.. غير أنها فارقتنا عند وصولنا جامع السلطان أحمد ذي المنارات الست والذي يقع مقابل آيا صوفيا... (هذا الجامع الذي تم انشاؤه من قبل معمار القصر السلطاني محمد آغا ما بين ١٦٠٩-١٦١٦ يسمى أيضاً بالجامع الأزرق، ماوي جامع بسبب الألوان التي تغطيه، وبسبب البلاط

والقيشاني الأزرق والأبيض والتي جلبت من ازنيك كنيسة آيا صوفيا
التي تم إنشاؤها من قبل قسطنطين الكبير وتم تجديد المبنى في القرن
السادس من قبل جوستنيان.

-IX-

أغاثا كريستي

اسطنبول دوقة الموت وأسرار الكتابة

أصبحت أغاثا كريستي دوقة الموت بحق بعد أن كتبت أكثر من مائة رواية وقصة قصيرة ومسرحية تبحث فيها عن سر الموت ولغز الجريمة، وقد بيع من كتبها أكثر من ملياري نسخة في العالم حتى غدت الأكثر شهرة وذبوعاً من أعمال أي كاتب آخر، بل بيع من كتبها في عام واحد أكثر مما بيع من كتب شكسبير بثلاثين مرة، ولم تكن بارعة في كتابة الروايات البوليسية حسب، إنما تربيتها في فرنسا وحياتها الباريسية المرفهة قبل عودتها إلى لندن جعلت منها عازفة بيانو ماهرة، ومطربة أوبرا ذات صوت لا يضارع، ولو لا خجلها وحيائها لأصبحت صاحبة أفضل صوت سوبرانو في العالم، كما كانت خارقة الجمال في شبابها، شقراء، ولها عينان زرقاوان بسحنة اسكندنافية وسيماء محبة، وهي الصورة المختلفة كلياً عن صورتها التي اشتهرت بها فيما بعد، العجوز ذات النظارة السمكة والشعر المهوش، والأنف الطويل.

تزوجت أغاثا أول الأمر من ضابط في الطيران الملكي الإنكليزي آرثيبالد كريستي الذي حملت لقبه، وتطلقت منه فيما بعد، ثم تزوجت

ماكس مالوان عالم الآثار الشهير الذي اصطحبها إلى بغداد في الخمسينات حينما عمل في العراق مع العالم الآثاري البريطاني المعروف كامبل تومبسون (مؤلف معجم النبات الآشوري)، واشتهرت تنقيبات مالوان في الموصل وفي الحابور، وتشاغار بازار (القامشلي)، وتل براك، ووادي البالغ، ثم في نمود، حيث اكتشف قلعة شلمانصر، كما أنه مكتشف التمثال البرونزي الشهير لرأس الملك الأكدي الشهير سارغونفاكتشف.

في بغداد، في أواخر الأربعينيات، قطنت أغاثا وزوجها مالوان في حي الوزيرية، وقد تعرف عليها جبرا إبراهيم جبرا في سينما روكسي بعد خروجهما من الفيلم هي وزوجها، ولم يكن يعرف بأنها أغاثا كريستي كاتبة الروايات البوليسية التي كانت ذائعة الصيت آنذاك، إنما تعرف على زوجها عالم الآثار الشهير، وقد دعاه كلاهما إلى منزلهما لتناول الشاي والكعك البغدادي، وقد ذهب عندهما أكثر من مرة على مدى أكثر من أسبوعين ولم يكن يعرف أنها كريستي الشهيرة، بل كان يراها امرأة عادية في غاية البساطة تقدم لزوجها ولضيفه الكعك والشاي وتجلس على مقربة منهما تحيك لزوجها بلوزة من الصوف لتقيه البرد حين يذهب إلى الصحراء منقبا عن الآثار، وفي يوم ورد أسمها عرضا فضحكت وقالت لجبرا أنها كريستي كاتبة الروايات البوليسية وقد تصور أنها مزحة إلى أن أكد له ديزموند ستيوارت الكاتب الإنكليزي الذي يقطن في بغداد هو الآخر تلك الأيام هذه الحقيقة.

كتبت أغاثا كريستي أكثر من رواية عن الشرق الذي زارته مع زوجها، وقد اشتهرت منها روايتان: موعد في بغداد، وجريمة في قطار

الشرق السريع، الأولى عن جريمة في شارع المصارف في بغداد المحاذي لنهر دجلة، والثانية في قطار الشرق السريع الذي كان يستقله زوجها إلى أوروبا من الموصل فحلب مروراً بتركيا. ويروي مالوان في ذكرياته بأنه كان يوماً جالسا في مقطورة الطعام في قطار الشرق السريع مع ثلاثة مسافرين أوروبيين، اتضح أن أحدهم هو عالم الآثار الفرنسي الشهير كلود شافير، في طريقه إلى مدينة أوغاريت السورية التي نقب فيها في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين، فجأة انحنى مساعده جورج شينيه إلى الأمام وسأل مالوان، إن سبق له أن قرأ الرواية البوليسية «مقتل روجر اكريود» لآغاثة كريستي، فقال له طبعاً لأنه زوجها، فلم يصدق شينيه ذلك، ولم يأخذ هذا الكلام على محمل الجد.

في رواية كريستي جريمة في قطار الشرق السريع، يتوقف هذا القطار مباشرة بعد منتصف الليل في اسطنبول إثر عاصفة ثلجية، وبحلول الصباح يكتشف الحراس جثة مسافر أميركي في مقصورته إثر دزينة من الطعنات، ولكن المخبر الغريب الأطوار البلجيكي هرقل بوروت، أحد المخلوقات الخيالية الأكثر شهرة، والذي انتصر على المجرمين المخادعين في ٣٣ رواية، كان على متن القطار أيضاً يقطن في مقصورة من الدرجة الثانية، وتندفع الأحداث نحو اسطنبول لتدور في فندق توكتايان القريب من بایوغلو الشهيرة، وكانت الأنسة الفضولية جين ماربل هناك أيضاً، وهي الشخصية الأكثر شهرة في الروايات البوليسية في العالم، والدليل الحقيقي للمخبر البلجيكي العظيم.

*

في يوم كنت في مقهى بيير لوتي في اسطنبول مع بعض الأصدقاء

عندما قررنا الذهاب إلى فندق بيررا الذي قطنته كرستي في العام ١٩٢٨، وهو فندق شيد في العام ١٨٩٢ لاستقبال مسافري قطار الشرق السريع القادمين من بغداد، وقطنه فنانون وسياسيون عديدون، فأعيد ترميمه مع مخلفاته التذكارية الثمينة مؤخرا، كانت أغاثا كرستي تقطن في الحجرة ٤١١، ويشاع بأنها كتبت رواية جريمة في قطار الشرق السريع في هذه الحجرة، شيء أشبه بالخيال حيث يمكنك أن تتجول مع الجاسوسة ماتا هاري، أو تتسكع مع كيم فيلبي، أو تجلس مع همنغواي على الصوفا التي كان يجلس عليها ويلخص روايته القادمة، السؤال هو كم مكان في العالم العربي، كم مقهى، وكم منزل، زاره هؤلاء الأدباء، ولكن لم يهتم به أحد، بيررا مكان لجذب الزوار، والسياح من كل مكان في العالم، صحفيون أورييون كتاب أفارقة دخلوا معنا لرؤية حجرة مفترضة لأغاثا كرستي، وقد بدأت القصة مع العرافة تامارا راند التي ادعت إنها اتصلت بروح كرستي خلال جلسة تحضير الأرواح، وادعت أن روح كرستي دلتها على مفتاح الصندوق الذي يحتوي مفكرتها المفقودة - المفكرة التي تحلّ اللغز - في غرفة ٤١١ في فندق بيررا بالاس في إسطنبول، وقد انفجرت الأخبار مثل قنبلة في الصحافة العالمية. الصحافة التركية والصحفيون الأجانب ذهبوا إلى بيررا بالاس، إلى غرفة ٤١١، اتصالات مباشرة مع لوس أنجلوس، أرضية الغرفة فككت، وكل شيء كان ينقل عبر الأقمار الصناعية على التلفزيون الأمريكي، أخيرا عشر الباحثون على مفتاح صدي بطل ثمانية سنتمرات.. ولكن؟ لا وجود للصندوق بطبيعة الأمر!!... الأشياء القديمة لها ثمنها؟ مرة سألت حفيدة أغاثا كرستي وهي شاعرة إنكليزية رقيقة، جاءت إلى بغداد

لتصور الأماكن التي زارتها جدتها في الخمسينات، (وكان أغلبها قد هدم وأزيل من الأرض) ما الذي جعل أغاثا كريستي كاتبة الروايات البوليسية أن تتزوج من عالم آثار مثل مالوان؟ قالت: لكي تزداد عنده قيمة كلما كبرت!! .. فسألت نفسي، ونحن لماذا تقل قيمة الأشياء، لدينا كلما تكبر؟

هذه أثينا وتلك ماريا المولعة بالشعر والدخان مدانم الشعر والحجر... مدانم الذهب والبحر

(هذه هي أرضنا التي تحولت إلى صحراء، عشت في روحنا مثل
مرزيان قاس

حلت الثانية عشرة منذ زمن طويل، والآن أي انتظار نستطيع أن نرسخه
في أنفسنا، انتظار لا يكون جنونا (ليل الرعونة خلفنا) جنونا، هذيانا)
الشاعر اليوناني تاكيس باباتسونيس

-I-

"هذه أثينا... وتلك أعمدة الأولمب"

Une page de voyageur

(حبك ليس سوى جرح وثلاث مشاجرات، هذا كل شيء على ضفة الشاطئ، كانت البكرة المشدودة تصر. حورية الأعماق مزينة بألف غضب، فزت عليك، بلعبة النرد، في بوزدين. كذلك رميتك داخل حوض معتم. لقد جف، حتى الملح نشف ولكن أنت، تنتظرين من سماء طاهرة: أرضية، ساحرة، شجاعة مشتهاة)

الشاعر اليوناني نيكوس كافاداس

*

هذه أثينا التي أحببت هدوءها العظيم، وتلك أعمدة الأولمب التي أحببت قوتها التي تجاوزت العقبات وانتصرت عليها. هذه أثينا التي أحببتها امرأة خطيرة ومتذبذبة، امرأة حكمت عليها آلهة الأولمب بقدر مشؤوم، فعاشت مصيرها الضائع بين الأبطال الأسطوريين والعشاق والحكماء والسياسيين والشعراء والفلاسفة.

هذه أثينا المتمردة التي تخبطت بين عالم الفن وعالم المجتمع، بين البوهيمية والارستقراطية، بين التقاليد والانحراف، وتلك ماريليا الفنانة

اليونانية المرفهة التي قدمت لي نفسها بأسلوب رائع ومتوهج، قدمت لي نفسها بين ثلاث أزهار صفر ذابلات في مزهرة، وهي تبحث في أثينا عن أحجار فقدت سحرها الذي كانت تمتلكه، وهي تبحث في جسد أثينا... المدينة الشابة عن نكهة الحياة... تبحث في البحار عن اللقى لا عن العالم وقوانينه وأعرافه، تبحث عن أثينا التاريخية التي أضعتها.. عن متربول العالم القديم الذي فقدناه.. عن جوهر العالم العظيم وحكمته ومجده، عن جوهر وجوده وحبه الذي يبتكر العالم، العالم الذي تقف فيه وحيدة فينفتح الشعر أمامها.

*

لقد أدركت عند وصولي أثينا سفر الكلمات والفضاءات والعوالم المتنوعة، أدركت الرحلة إلى العالم القديم، الرحلة إلى العالم المجهول.. الرحلة الاكتشاف.. الرحلة المعرفة.

وقفت أمام بانعة عجوز في كيوسك خشبي في ساحة أمونيا، وسألتها.

"هل لديك خارطة مفصلة لشوارع أثينا؟"

"نعم..". وناولتني الخارطة، ثم عدلت نظارتها على عينيها وقالت:

"ستقرأ الخارطة ومع ذلك ستضيع في شوارع أثينا."

كنت أتصور أنني سأكتشف أثينا من خلال الخرائط والكتب والأوراق.. وبعد أشهر ضحكت على نفسي وأصبحت ضائعا مثل أي ضائع آخر في أثينا.

أدركت أن أثينا لا يمكننا أن نكتشفها إلا من خلال الضياع في شوارعها ومع نساها وفي قصائد شعرائها، أدركت في أثينا شيئا من

الحس الخالد الذي يتحدد على الدوام بلغة كيانه ووجوده.. الشعور العظيم الذي يتجدد بلغة معانيه ودلالاته، أدركت في أثينا الشعر الخالد والأبدي والذي هو تغير وتجدد وهو اكتشاف ومعرفة.. وهو حس ولغة.. شعور ووجود.. لقد أدركت عند وصولي الأكروبول الجمال الشاحب للشاعرة اليونانية التي لم تفقد الاطلالة الشهوانية لجسدها وعينيها الخضراوين.

*

لهب هائل في أثينا الصباح، الوصول من المحطة، والجلوس في مقهى صغير بمقاعد ذات اذرع مكسوة بالساتان الابيض مع اريكة واسعة، لهب هائل في لقائي الأول بماريلا التي كانت ترتدي ذلك اليوم ملابس مسرحية، ترتدي الملابس القديمة التي أعادت الى ذاكرتي ثياب انتيجون ومصيرها التراجيدي الضائع، ومنذ العبارات الأولى لتعارفنا سحرني حديثها الفاضح الغريب عن جسدها والأباحية الخفية للآثينيين، سحرتني لغتها الفرنسية البالغة الهشاشة، والجارحة بوضوح...ومن النافذة الطويلة، كنا ننظر إلى عابرات السبيل وقد حققن في التنورات المحزقات بالدانتيل الحياة التي لا معنى لها إلا بنفسها، والحماسة المتوقدة التي تحقق في (حب الرجل للمرأة) أكبر المعجزات.

*

أثينا التي لا تعرف في الشعر المبالغات، هي التي كانت نائمة مستلقية على البحر، كما رآها سيفيرس مرة فقال لها:
"أنا أعبد الشاعر الذي صنعك هكذا مستلقية على البحر.."
كانت مستلقية على رمال البحر وقد صنع سيفيرس منها شعرا... كما صنع جوليان غراك شعرا من مدينة السرت.. ومن أسر

أورسينا..ومن البيت الريفي على شاطئ نهر زنتا. تذكرت عند وصولي
أثينا شعر ريتسوس، تذكرت حنينه الخالد، وارتجافته الأولى، وطاقة
فكره. وأدركت طريقين في شعره: واحد يفضي إلى البحر، وآخر يفضي
إلى الأكربول، وأنا بينهما ضائع ومضيق.

أدركت في أثينا جوهر الشعر وهو يقترب من السفر والرحلة
والإقلاع والطيران والمنفى والتغير والتجدد... أدركت جوهر الشعر وهو
يقترب من اكتشاف المدن الغريبة والمجهولة والتي نطأها أول مرة في
السفر والرحيل... وأدركت جوهر الشعر وهو يقترب من المرأة
أيضا.. المرأة الرحيل.. والمرأة المدينة المجهولة التي نرحل إليها بالحب
والشعر والسفر..

-II-

شاعرية المدن وغرام اللصوص

"اللصان المغرمان اللذان قاداني إلى البار ذلك اليوم هما اللذان سرقا آخر الدولارات من جيبي..."

"كان يمكنني أن أعطيها لهما عن طيب خاطر."

"لا... الأثيني لا يكسب الصدقات يأخذ ما يريده بالخدعة أو بالقوة.. قالت ماريليا وهي تشرب كأسها".

"على العموم ليس من الضروري أن يكون لديك المال لكي تعيش في أثينا.. يكفي أن تكون شاعرا مشردا هناك... وأن تجوب المدن والجزر مشيا على الأقدام".

"كيف نصل المدن الأخرى والجزر؟"

"تصعد السيارات في الأوتوستوب ونضيع في المدن.. سنجد هناك الكثير من الشعراء والفنانين والمسرحيين الضائعين مثلنا.."

حكمة قديمة... حكمة.. قديمة في أثينا.. أن نضيع ولا نجد أنفسنا إلا في الأشياء القديمة والأحجار والكلمات.

*

حين وصلت أثينا في الصباح.. كانت أكثر من مدينة مصنوعة من

الشعر، وأكثر من نساء يحملن الحقايب الجلدية ويدخن السجائر البيض في المطارات، أثينا القديمة والشهيرة تقدم مجدها الذي اكتسبته من انتصار سلاحها ضد الإمبراطوريات العظيمة، تقدم الحماسة الأسطورية والجسارة المحمومة لأبطالها والكسل المتبطل العظيم لفتياتها... أثينا هي الضجر المبكر الذي يجدد شباب البشرية على الدوام، يجدهه في متعة الأفكار، والمسيرات الطويلة التي كنا نقطعها مشيا على الأقدام، وسهرات الصيف العاصف قرب الأولومب، كما أنها الثراء الأصيل الذي نكسبه من المباريات الأفلاطونية المزدهرة...

كنا نسير -أكثر من عشرين شابا-... فنانون من كل بقاع العالم.. الحقايب على ظهورنا والساندويشات التي نشحذها من السواح الأثرياء في جيوبنا... وها هي أثينا السكون المتوعد، تقف عارية وعزلاء، ومنحية كمشعل في الظلمات...

حين تمررت ماريلبا الشاعرة اليونانية أمامي وغبنا معا في ظلمات حجرة مؤجرة في حي بلاكا في أثينا، قلت لها ذلك اليوم، ونحن متلقيان على السرير:

"ليست أثينا الشعر حسب... إنما المدن التي زرناها في اليونان أيضا". وأنا الآن أدرك أكثر من أي وقت مضى أن هذه المدن العظيمة التي زرناها أنا وماريلبا مشيا على الأقدام لم تكن بعيدة عن الشعر أبدا، لا أنصد الجزر المتناثرة في البحر أمام البلقان، المدن التي يغمرها ضوء أبيض ويغشي عينيك سطح المياه اللامعة تحت وهج الشمس الدافئة، إنما المدن الحية.. المدن النساء اللواتي يستحمن في بحر اليونان، أو النساء اللواتي يرتدين البناتيل الضيقة دون كالسونات ويصعدن المدرجات العالية إلى الإكربول.

وفي اليوم الذي حصلت فيه ماريليا على المال من طبع ديوانها اشترت تذكرتين وجاءتني راكضة لتعد حقيبتها أمامي في شارع باخوس القريب من بلاكا، وهي تقول : " تعال يا عزيزي لنبحث عن الشعر في الباخرة الزاهية إلى جزيرة كريت"...

*

في أثينا تعرفت على ماريليا الشاعرة اليونانية، تعرفت عليها في مقهى صغير قرب ساحة أمونيا، وكانت ضمن فرقة مسرحية عالمية تقدم الأعمال التراجيدية في الهواء الطلق على مسرح أوبيداروس، كان ذلك في أول المساء وسهرنا معا حتى الصباح، حتى شهدنا شروق الشمس على البارنثيون، ثم غمنا في الظهيرة والتقينا في المساء، تحدثنا عن الشعر طويلا، ثم قضينا الليل معا ونحن نعوم في البحر ونتدحرج على الرمل، كانت واهنة أول الأمر ثم سرعان ما جدد الشعر نشاطها، فأخذنا نحتضن بعضنا وسط الحركة والصخب اللذين تحرص الموجة على إثرتهما بلذة فائقة، قضينا الليل معا حتى شروق الشمس على البحر فداعت موجاته أجسادنا العارية المستلقية على الرمل.. وصفع وجهينا صخب الأمواج التي يدفعها الهواء الهاب من العمق.

كنا هناك عند البحر نتسلى على الشطآن المفسولة والمقفرة، في الخلوات التي تمتص الضجيج، قرب الأعشاب الهزيلة التي تحاذي البحر، وقد حوطتنا أسراب الطيور المتوجة التي تحط على الرمال المخدرة.

لقد شهدنا أنا وماريليا في الليل مجد تنويع أجسادنا في اليونان، مجد المتع الأثينية في الشوارع القديمة، واختلسنا النظرات لبعضنا حتى بزغت الشمس ونشرت شعاعها الذهبي على البارثينون في الإكروبوليس،

وفي الصباح وقفنا معا... وقفنا هناك على الحجر الكبير لنختلس النظر إلى المشهد العظيم من أعلى القلعة القديمة: مشهد بلاكا المدينة المزدحمة، وأكاديمية أثينا بشكلها الهندسي الجميل، ومبنى البرلمان الفخم... شاهدنا من الأكروبوليس مكتبة كابنيكاري وكنيسة كولوريا، شاهدنا معبد زيوس والتفصيل الفسيفسائي الموجود منذ عهد بيريكليس، إنها القلعة الطبيعية المهيبة التي تسيطر على مشهد أثينا من كل مكان، التماثيل الباقية منذ زمن بعيد، التصوير الجصي المثير، المشهد البانورامي الموحد لعاشقين منفيين في المصلى الصغير... إنها جاذبية أخرى لهذا التل العالي الذي يشبه موجة الحوريات، جاذبية أخرى لمسيرتنا الطويلة، وقد رافقنا ذلك اليوم صحفي ياباني وسائحة أمريكية شابة كانت تعيش على ما يتركه العشاق على جسدها... جاذبية كبيرة للمسيرة الطويلة في شارع بلوتارتشو كسينوكراتوس، للتجولات المتعبة في الطرق المؤدية إلى سكة الحديد الجبلية التي تأخذ الزوار إلى القمة بأجر كبير، للتمتع بالمنظر الضبابي المخيم على المدينة، للنظر إلى الجزر القريبة، والمغازلات الطويلة في برج كولوناكي، وللجلوس في المقاهي الموجودة قرب المطاعم العظيمة المربعة، والتفرج على دكاكين الأزياء.

جلسنا على الرصيف أنا وماريلا وأكلنا الكولوري من بائع متجول.

قالت:

"إنها الأكلة الشعبية التي كان نيكوس كازانزاكي يحبها"

لم يكن معنا مالا كثيرا فتقاسمنا العملة المعدنية التي كانت في جيوبنا، وبما تبقى اشترينا الغالاكتوبوريكو (معجنات مقشّرة بسكر مطحون)... ثم ذهبنا إلى المتحف ونجولنا قرب البوتيكات:

ستينافيل..جوكسي...ماكس مارا...ركضنا على رصيف إرمو...توقفنا
عند البناية المقابلة للبرلمان، وتحارشنا بالمراهقة التي ترتدي ملابس
فضائية وتقف عند الماكدونالدز...

لقد قبلت ماريلا على جدار الكنيسة البيزنطية الصغيرة في
كابنيكاري، ثم انحدرنا راكضين نحو موناستيراكي والسوق
الرخيصة...وفي المساء شربنا على حساب صحفي فرنسي أنيق كان يريد
مرافقة صديقتنا الأميركية، فاصطحبناهما إليالحانة التقليدية شبه
المظلمة، وهناك أكلنا وجبة رخيصة على حسابه واحتسينا البيرة
والرستينا، ورقصنا رقصة زوربا على صوت الموسيقى اليونانية حتى
سقطنا أنا وماريلا على البلاط...فعطس الصحفي الفرنسي من الرعب
وولى الأدبار.

-III-

أثينا وشعر الآلهة الضائع

هذه الأزمنة حيث الثمار تطلّى بالذهب، تتلون. حينذاك، كانت قلوبنا لا تزال فتية، حية، وضوغة على أكاليل بلون أخضر فاقع كل الريح التي تلامسها كانت ريحا طيبة. عند كل نسمة تمنحها أكاليل لزهر عنفوانا ومجدا. الآن، خدعتها الأساطير بخريشاتها. هذا ما تعبر عنه انحناءات النقش المنخفض بشكل مقنع هذا النقش المنخفض الذي يصر الجهلة، على تسميته، أسطورة.

الشاعر اليوناني تاكيس باباتسونيس

*

كنا نبحت يوم الأحد العظيم، في المساحة الساحرة للأشياء القديمة عن تذكارات الحب، كنا نبحت عن تذكارات المدينة القديمة، نبحت مع السواح والعشاق والزوار عن أثر ضائع من شاعر قديم ضائع، كنا نتجمع في جمع غفير، وكان السواح الأجانب يشترون قطعاً من الشطرنج الرخام، ومن المقالي النحاس، ومن القدور الخزفية، والتحف، والعملات المعدنية والطوابع القديمة، والأثاث الكلاسيكي الفخم، كان السواح يشترون كل شيء ثمين، بينما كنا نبحت عن قصاصات صغيرة تباع، ورسائل غرام، وأشياء مهمة لا يسأل عنها أحد.

كنت أنظر إلى وجه ماريللا الذي يشبه وجه أئينا: العينان المشدودتان بقوة نظراتهما، التحديقة اليونانية المتشاقلة، والنظر إلى الأشياء بنهم كبير، أحببت ذلك اليوم لمساتها، أحببت تلطفها الهادئ وصخبها، أحببت رعونتها وفضائحتها، وأحببتها أكثر وهي تقرأ لي في السرير شعرها، إنها وريثة الشعر اليوناني العظيم، وريثة اللمسة النظرة لأشعار الحب، وها هي تزيع في الظلام عن جسدي تلبكه بصوتها الشجي وقبلاتها الخفيفة ولمساتها.

قرأت ماريللا قصيدتها في السرير بنبرة سريعة متجردة، فتبينت وجهها مكشوفاً في الظلام ... لامعا ببريق حيوية مبالغته.

*

تجولنا ذلك اليوم قرب كيراميكوس القديمة... قرب المقبرة الجميلة، والنصب الجنائزية للأسر الأثينية الثرية... سرنا متعانقين على رصيف بلاكا، في الجزء المتميز والمزدحم من المدينة القديمة، لقد عشنا ذلك اليوم الظهور الصامت والساحر للتاريخ، والذي احتجز المدينة في دائرة صبحه المضيئة، شهدنا بلاغة المدينة التي تتجاوز كل بلاغة الكلمات... ثم جلسنا تحت ظلال الجدران في الأكروبوليس، جلسنا على أرصفة شوارعها الضيقة الملتفة، وأحببنا بلاكا وكأنها أعادتنا إلى مجدها السابق، مجد شعرائها العابثين والبوهيميين والمتمردين والعاشقين أيضاً.

*

ذهبنا أنا وماريللا لنؤجر حجرة صغيرة في بنسيون قديم، كان سحر الجدران الملونة الباستلية والشرفات الحديد قد أسرتنا. ومن النافذة كان المشهد الساحر: الحجارة البيضاء الصخمة،

الكنائس الصغيرة المنتشرة في كل مكان، الناس الذين يتجمعون على موقف الباص، المحانات الصغيرة المفتوحة حتى آخر الليل، السواح القادمون من كل مكان وهم يبحثون في الدكاكين عن التذكارات القديمة... كل شيء آسر وخاب على نحو خالد وأبدى، تكلمنا مع صاحبة البانسيون البدينة بأننا نريد استئجار حجرة، نظرت إلى كلينا وسألتنا عن عملنا:

شعراء..

هل يمكنكما أن تدفعا مقدما

على الأقل يمكننا هذا الشهر

قالت عندي حجرة بسرير واحد.

التفتت ماريليا لها وقالت.. نعم سرير واحد مناسب جدا لعاشقين وشاعرين أيضا..

نمنا في الحجرة القديمة وكان تمثال سقراط مثل أيقونة دينية تحرسنا.

*

أمضينا شهرين في التجوال في أنافيوتيكا البيضاء، الأكل في المحانات الصغيرة شبه المعتمة، الركض في الشوارع الضيقة كما كان يفعل شباب الإغريق، السير على الأقدام في جزيرة سيكلاديك، الصعود في سيارات الاوتوستوب، والقبلة الساحرة التي طبعتها ماريليا على جسدي في أيرديس قرب برج الرياح، على الصرح الرخامي المشتم الأطلال، هناك نمنا على المصطبات القريبة من السوق المسقوف القديم وقد عزف لنا موسيقي شحاذ رومنسيرو الحب وكأننا نمنا واستيقظنا منذ زمن قبصر اوجوستوس... نمنا واستيقظنا في شارع الفجر، الفجر الذين

باعوا لنا رباط الحب الرقيق، القماش المطرزة الملونة في ساحة
موناستيراكي، في الشارع الذي يقود إلى الكاتدرائية في ساحة
سينتاجما وبنية البرلمان.

لقد عشنا ذلك الصيف حياة متبظلة، عشنا الحياة الأكثر حبا
وغموضا في أثينا، عشنا الحياة الضائعة ونحن نجوس الطرق النادرة
والشقق الرديئة والوجبات القاحلة، عشنا ليال أثينا، حياة اللهو والفن
والمرح، وكان سيرجي، الممثل الروسي المجنون هو الذي يقودنا إلى
متهاته ومتهات الفن ومتهات أثينا أيضا... لقد نمنا في كل مكان..
على أرصفة المرافئ وعلى مصاطب الحدائق وعلى حجر الآثار... كنا
نتمدد من التعب واللذة على الأرض ونعد نجوم الليل في السماء..

لقد نمنا على رمال البحر حيث الموج يحاذينا في الليل، وفي الصباح
يجتاحنا المد وبللنا، عشنا كشعراء بوهيميين في الخرائب الآثارية القديمة
وقد أخصبتنا بتقشفها العبقري.. لقد أخصبتنا بقسوتها بعد أن انسحبت
من الحياة الرخوة وتلاشت تماما.. كنا نسير من الصباح إلى المساء مثل
الفلاسفة السفسطائيين.. وفي الليل ننام في الطرقات البعيدة التي تحيط
بالآثار العظيمة، أو على المصاطب في البقع المقفرة من الضواحي، كنا
نرتكب الخطايا في الحانات الراقصة وفي حدائق الليل، شباب من جميع
أنحاء العالم.. شعراء وسواح وهاربون ومنفيون ومغامرون ومولعون
بالفن، باخوسيون أو أبولونيون، أوربيون أو آسيويون، إنها ولائم شباب
متمرد قادم من كل مكان من العالم، ولائنا التي لا تنتهي منذ ظهور
أثينا على الأرض.

*

قرب الأكربول كنا متمددين على العشب ننظر ضوء القمر وهو يسقط عموديا على السطوح وعلى الآثار والخرائب التاريخية، وكانت الأجزاء العلوية من المباني ساهمة في ظلها الشفاف، أما ألعابنا السرية في الليل فقد كانت صامتة ونحن نتنفس بعمق على العشب الحجازي الناعم ونتنفض من المتعة البدائية التي غمرنا بها الظلام. الشاعرة الأثينية التي نامت إلى جانبي كانت مثل تمثال أسطوري من الرخام بينطلون من الجينز وقميص قطني أزرق، لقد نامت على يدي وتنفست بعمق في ظل آثار الأكربول، وفي الصباح أشرقت الشمس علينا في العراء... كان البخار الرقيق المرتجف الذي يلفنا قد اختفى بعد أن توهج النهار مثل فحم مشتعل، مسحنا أعيننا ونحن ننظر الشوارع الضيقة التي تتعرج في أثينا القديمة، ونحن ننظر الأبنية بنوافذ جميلة، ونعيش الطراوة الصغيرة على الحداثق والضواحي التي تتأرجح فوق التموجات الهائلة للأرض، كأنها شلالات من السكون المتوعد.

-IV-

حنين التائهين على الأرض

لا الكابتن الذي كان ينظر إلى ملامح بيربوس، ولا المنازل المدورة فوق سطح الجبل المحيط بالميناء، ولا حاجز السفن أو الأرصفة أو السفن الراسية، أو أجراس البواخر، أو الأمواج التي ترتطم بالرصيف، أو الابتسامات التي يقدمها البحارة للمارة، أو ضحكات النساء للذين يلاحقونهن في بارات المرافئ، أو تحقيقات البوليس عن الجوازات والتصريحات وإجراءات الدخول، ولا الحركة التي لا تهدأ عند منضدة الجمارك.. تنفصل عن حنين الشعراء التائهين على الأرض أو الشعراء التائهين في شوارع أثينا.

يوميا كنا نقطع المسافة بين بيربوس وأثينا وهي المسافة التي لا تزيد عن ثلث ساعة عبر محطة المترو أمونيا، كنا نصعد نحوها من تحت الأرض.

كنت أحمل حقيبة محزومة على ظهري وأسير، وأرقب المارة الذين يهرعون في الصباح لأعمالهم، الرجال الذين يسيرون وهم يحملون الصحف بأيديهم، النساء اللواتي يحملن السلال، الكسبة الذين يقفون بالطابور في محطة المترو أو عند ميدان الباصات، عمال التنظيف وهم

يقشطون الإسفلت، موظفي البريد، وموظفات المصارف، سكرتيرات مكاتب السياحة، عمال الفنادق، باعة الصحف والمجلات في الأكشاك المنتصبة على الرصيف، عمال المطاعم الذين يرتدون الملابس الموحدة ويصفون الكراسي أمام المطاعم أو المقاهي، وهناك السياح الأوروبيون الذين يستقلون الباصات الكبيرة ويذهبون للمدن الأثرية. إنهم المغامرون الصغار الذين يغادرون في الفجر الإرجواني ويتجهون في المنحدرات الترابية والمرتفعة والمهجورة ويقطعون الأراضي السبخة والقنوات والمدقات غير المطروقة التي أقامها الأباطرة والقيصرة لتصل بهم إلى مكان صيدهم عند البحر.

"هذا هو حنين الآلهة إلى الأرض"

"ماذا تقولين؟"

"حنين الآلهة إلى الأرض... أشعر بحنين الآلهة إلى الأرض كلما أرى مشهد الناس وهم يهرعون في الصباح إلى أعمالهم."
أو حنين الشعراء التائهين على الأرض

*

لقد عشنا أحلامنا الحقيقية في أثينا، أحلام الشعراء والحكماء، والفلاسفة والتي لم تكن أحلام أثينا بعيدة عنها، الأحلام التي توحى بالسبيل الذي ينبغي أن نتجه إليه لا لأننا كنا نحب الشعراء اليونانيين، أبدا... إنما لأن العالم الذي افتتن به سقراط كان عميقا جدا فاستهوانا للعيش فيه، وكان بوسعنا اللحاق به في عالمه، وهكذا سرنا أنا وماريلا في الطرق المؤدية للآثار العظيمة في الربيع المزدهر، نستمتع للأنفاس البهيجة الجديدة على الأرض، وننتظر اللقاء مع السفسطانيين... وأثينا

بكل حكمتها كانت تفتح ذراعيها لأصدقائها القادمين من كل مكان، كانت تفتح يديها للمحبة الحقيقية التي يعيشها سواحها، للمؤرخين الكثيري المطالب.

قالت ماريليا إن عشاق أثينا لا يجدون المتعة الهائلة في الإغراء والمغازلة إلا وهم يعيشون في حالة الحب الإثارة الحقيقية للقبيلات والملاسمات في الأماكن العالية والخطرة.

قلت لها لماذا؟

قالت: إنها تشبه حالة الاحتياج التي يحسها المتزلج على الماء وهو يشهد النهاية الهائلة للموجة الصاعدة والهابطة في منحدر أبيض.

*

لقد تعرفنا على الكثير من الشعراء والروائيين والفنانين والمسرحيين والصحفيين والعاشقين والمغامرين، وعشنا معا على القمم الشامخة المحيطة بالمدينة القديمة، وتلذذنا طويلا بالصعوبات والقفزات والانحدارات، عشنا حكمة أثينا التي لا حكمة مثلها في مدينة أخرى، لا حكمة مثلها تحمبها من طغيان التاريخ.. وهي تعيش تحت طغيان التاريخ.

أثينا مدينة بدأت باللعب بقوانين الكبار مبكرا، مدينة بدأت بالاستسلام للنزوات والاهواء والميول وهي مراهقة، مدينة لم تتزوج أحدا لكنها عاشت كما شاءت، كما أرادت واشتهت.

*

المرأة البدينة التي كانت تملك البانسيون الذي أجرنا فيه حجرة في أيامي الأولى في أثينا كانت تهتم كثيرا بالكريستالات، وبالكتب،

وبالزهور، وبالحكمة القديمة، وبتجمع جسدها قبل ذبوله وتلاشيه. وفي يوم
أحد سارت معنا في شوارع بلاكا الملتفة الضيقة، وبين بوتيكات الملابس
والمكتبات ومحلات الزهور والمطاعم الصغيرة والتبراسات على الأرصفة
غنت لنا أغاني الحب الفلكلورية بصوتها الشجي، ونبرتها الحنونة
العذبة، وفي حانة البلدة الصغيرة رقصت على أنغام الموسيقى اليونانية
الصداحة وشربت نخب نيكوس كازانزاكي في رواية زوريا، وفي المساء
سارت معنا في حديقة البلدة الصغيرة المغمورة بضوء القمر بثقة ومزاج
شفاف، سارت على الآثار السحرية التي صنعتها الآلهة اليونانية في
أوراق الأشجار الخرافية، ثم ودعتنا عند منعطف الطريق لتلتقي صديقها
صاحب كشك الصحف والمجلات والكتب في ساحة بلاكا، الرجل النحيل
ذا العينين الحالمتين المحتشدتين بالأفكار، ثم رفعت يدها مودعة وقالت:
(من يحب أثينا لا يشيخ أبدا).

-٧-

أشينا... والمباركة الإلهية لزيوس

(تموت الأشياء ، حولنا أين تقضي الليل ، تسمع مثل همسة تخرج من
الدروب التي لم تدسها من لبيوت التي لم تزرها من النوافذ التي لم
تفتحها من الجداول التي لم تنحن عليها لتشرب من المراكب التي لم تبحر
فيها أشجار مجهولة تموت حولنا يجتاز الهواء الغابات المخربة تنفق البهائم
من المجهول والعصافير من الصمت تموت الأجساد شيئا فشيئا من الإهمال
ومعها ، ثيابنا القديمة في الصوان الأيدي التي لم نمسها تموت من الوحدة
الأحلام التي لم نصفها من نقص النور خارجنا تبدأ صحراء الموت)

الشاعر اليوناني جورج تيميليس

*

في ملعب الأولمب شممنا رائحة حادة مأكرة طبعتها الآلهة على
الحجر ، عشنا تحت غبار سباق الجياد والعربات والعدو والقفز الطويل
ورمي الرمح ورمي القرص والمصارعة والجمنازيوم منذ عهد الأبطال
الأسطوريين.. عشنا أيام أولمبيا والأسرار الكامنة وراء هرقل الذي قاس
ملعبها بستمائة من قدميه.

هذا هو ملعب الأولمب. قالت لي ماريليا فشعرت تلك اللحظة

بالمباركة الإلهية لزيوس، شعرت بمعبده العظيم وتثاله المصنوع من الذهب والعاج، رأيت كاليغولا الذي أمر بجلبه إلى روما وحين وصلهم انفجر التمثال بالضحك حتى أخاف الرومان فلاذوا بالفرار... شعرت بمسرح إبيداوروس في أعالي تل غابات الصنوبر، وبالجمادة التي مشيناها مع فرقة مسرحية روسية حتى وصلنا مركز المدينة.

هذه أسكليبيوس وهو في ملامح أفعى... وتلك أمسيات الصيف التي تقام بها مسرحيات سوفوكلس ويوريبيدس والممثلون القادمون من كل مكان من العالم، بملابسهم الإغريقية وأقنعتهم، في أثينا.. على المسرح التراجيدي العظيم عشنا المكان الذي كان يطلق صيحات الألم والحقد والغضب والعنف والقسوة مجسدة... عشنا الهياج الحقيقي للتاريخ وهو يعود مرة أخرى وحين صعدت المثلثة البولونية على مدرجات المسرح صرخت:

(هنا مات القياصرة والنبلاء، هنا عاشت أوغستا حياتها وسط الارهاب والموت).

*

في الصيف الذي أمضيته، كانت هنالك فرقتان مسرحيتان تجويان مسرح إبيداوروس وهي تقدم مسرحيات سوفوكلس، قالت ماريليا لي أن لها رغبة أن ترى أنتيجون على مدرجات المسرح القديم، فجلسنا هناك لنعيش طقوس المسرح الإغريقي العتيق، نعيش السحر البدائي العميق والعبادات الأولية الحقيقية، نعيش الإيمان والنشوة الروحية التي كانت تنتعش بقوة بين الأثينيين، قوة المشاعر وسحرها، المسرح الذي يستقطب العبادات والشعائر التي يمكنها ان توقظنا جميعا. كنت مثل مواطن

يوناني قديم يطلق صرخاته ليحرض الممثلين على التوهج وبلوغ النشوة من جديد، كنا ننفعل في الحوار والحركة ونشعر بحالات النشوة والانفعالات الحادة جميعها، نحن لم نضيع تلك العبادات أبداً، لم نفقد الاحساس وقوة المشاعر وكان هذا المسرح كافياً أن يعيد لنا هذه الشعائر ويعيد ما فقدناه ويبث الروح في احاسيسنا.

المسرحي المجنون

سيرجي... المسرحي الروسي المجنون الذي تعرفنا عليه في جادة إيبداوروس كان يشبه نابكوف في وجهه الناحل، الدوائر الزرق تحيط بعينه بفعل الارهاق، بينما كانت عيناه سوداوين بفعل الأسى .. إنه كائن هستيري بحق، قام بأداء دور هائل في مسرحية سوفوكلس وقد سحرنا بسحنة وجهه المقابرية، وبعينيه المفعمتين بالأسرار، وبوجهه الذي يشع غموضاً غريباً، وببيديه المرتعشتين القادمتين من أعماق كهف عميق.. مسرحي نبذه المسرحيون الروس وطرده، مجنون بالمسرح التراجيدي القديم، وجود شبحي ناحل يرتاد المقاهي ثملاً ويعيش بين أحجار المسرح الكورنثي القديم، مدمن منعزل لا يشارك أحداً في طعام أو كلام، يعيش بشباب ممزقة أشبه بشباب أخوة هوراس في اللوحة القديمة، كان يحفظ المسرحيات الإغريقية عن ظهر قلب يكفي أن تقول اسم مسرحية حتى يردد عليك مقاطعها كاملة مع التمثيل والحركات اللازمة. كان سيرجي يجوب الطرقات وهو يردد أقوال سوفوكلس بصوت عال، ويتحدث عن التراجيديا الإغريقية ومشاهد التعذيب والارهاب الدموي لأرستقراطية أثينا... المسرح هو مدعاة للألم... المسرح المتوتر

المحتاج الملبئ بالتشنج هو الذي يقودنا إلى التطهير، ولذلك كره يوربيدس، كان يعيش صراعا دائما مع العالم الذي يستحضره في مخيلته ويقوم بمحاكاته ليرى أحداثه العنيفة اشبه بمظهر من مظاهر القسوة والعنف. الهذيانيون والمهلوسون وحدهم السعيدون في الحياة، الهذيان هو التأمل الجبار على المسرح لإدراك الحياة، الإدمان الذي يدمره هو حقيقة مسرح سوفوكليس، الأمر الاستثنائي في الأمسيات الإغريقية والإحساس المرفه بالعظمة، إنه الإيمان بالسحر والأساطير والخرافة والحماسة البالغة للحياة الماضية والتي يبررها برعبه وعزلته ووحدته. كان سيرجي يريد زيارة الألف وأربعمئة جزيرة من جزر اليونان، كان يريد أن يزور كريت التي خبأت سرا داكنا من ماضيها القديم، كان يريد زيارة قصر كنوسوس زوجة ماينوس التي خانت زوجها مع ثور فأُنْجِبت المينوتاور، فبنى زوجها متاهة لإخفاء عاره ولجعل مينوتاور عاجزا عن الخروج منها. هذا المكان وحده الذي يجعل سيرجي يعيش أحجية رهيبة من الممرات والسلالم والمعابر الداكنة. كان سيرجي يعتقد بأنه تيسبيوس الذي أقسم بأن يقتل ميناتور وسيعود إلى بحر جزيرة كريت حاملا شراعا أبيض... كان يعتقد أنه سيجد أريادن ابنة ماينوس التي ستعطيه كبة من الخيوط ليجد سبيلا له خارج المتاهات، وسيدخل وكر الوحش وسيذبحه، وسيصاب الملك مينوس بالحنق والغضب فيجبر تيسبيوس وأريادن على الفرار. .. غير أن المأساة تتعقبهما وهذا ما يقر به سيرجي المسرحي الروسي المجنون.. ويدرك بأنه لا بد أن يعود ويفرق في بحر إيجة.

-VI-

إيثاكا وعالم كفافيس الساحر

إذا ما شددت الرحال إلى إيثاكا فلتتمن الطريق أن يكون طويلا
حافلا بالمغامرات ملينا بالمعارف.

لا تخش الغيلان والمردة وإله البحر الغاضب، فإنك لن تلقاها في
طريقك ما دام فكرك ساميا والعاطفة الخالصة تقود روحك وجسدك.

Constantine P. Cavafy

*

قلت في نفسي: هذا هو الوقت الذي ينام، فيه.. الشاعر.. والملك..
والراقصة.. والسكران.. والعاشق... كنت أسأل نفسي تلك اللحظة
بالذات عن سانتوريني عن أطلانطا المدمرة عن الرحلة إلى المجهول، عن
الرحلة إلى إيثاكا في شعر كافافيس، الرحلة الحافلة بالمغامرات المليئة
بالمعارف، شريطة أن لا تخشى مردة الألومب ولا إله البحر الغاضب،
الرحلة إلى أثينا هي أن تسمع شاعرة بيروس المولعة بالحضارة الهيلينية
تحدث وهي ترفع عينيها وتنفث الدخان من سيجارتها الكنت في
وجهك، ثم تضع على كتفها حقيبتها الكاكية وترحل، وأنت مثل عامل
قديم تقسم عندما يأتي الليل بنصائح ومصالحته ووعدوه بحياة أفضل،

عندما يأتي الليل بعنفوانه، بعنفوان الجسد الذي يرغب ويطالب بالفرحة المحتومة ثم يعود خاسرا.

لقد سافر يانيسيس ريتسوس في السبعينيات من القرن الماضي إلى ميكونوس التي تشتهر بشواطئها الجميلة، والبوتيكات الأنيقة و الملاهي الليلية. سافر إلى الجزيرة الإغريقية التي تملؤها المئات من الكنائس الصغيرة والطواحين الجميلة... فعرف جوهر الشعر...

لقد تتبععت خطاه، رحلت إلى أثينا وأجرت هناك حجرة رخيصة، حجرة منزوية في الخفاء.. وعشت حياة أثينا المملوءة بالمغامرات والمعرفة، فعرفت هناك الحانة المشبوحة والمظلمة، النافذة المقورة التي تطلق الضوء الذي يبضع سواد الشارع، الزقاق القذر والضيق، أصوات الرجال الذين يلهون، النساء اللواتي يغنين، السرير المتواضع الذي يحمل الرغبات والشفاه المتوقدة، وهناك أنتيوخس الملك السوري في مغنيسيا... عرفت الشعر من الغفوة القصير والمتقطعة على المصاطب الخشبية في الأولومب، من التمدد على العشب وأكل الساندويشات الرخيصة، من التعب بعد رحلة يوم طويل، من النساء والأحلام والفن.

أغمض عيني وأهوي في دوامة بعيدة.. فتحيط بي أصوات متداخلة مع بعضها.. أبيات من الشعر.. ألوان تبرز وتخبو.. همهمات.. صباح.. أصوات الحقايب وهي ترتطم على الخشب.. روائح.. عطور.. غبار على الأرضية الصلبة.. قشور فواكه.. ورائحة شواء الهمبركر من الأكشاك القريبة.

*

ساعات متماثلة دون وعي
محاولة أن تُشرق
عند خلفية الصفحات.. حيث لون الحداد.

....

اليوم كانت تُمطرُ في أثينا منذ الصّباح
إنه مطر ثلجي أصفر رفيع.

Manolis Anagnostakis

*

أثينا وجه امرأة يطلق ألف سفينة، يطلق سر آلهة الأولومب أو سر
جزيرة ضاعت تحت مياه البحر في أتلانتا... كانت السماء تمطر ونحن
نتنظر الباص الذي يقلنا إلى مقهى صغير في شارع قريب من البحر،
احتمينا بالمظلة أول الأمر.. ثم هرعنا راكضين أنا وماريلا إلى شجرة
ضخمة وجلسنا تحتها.. وبقيلة طويلة استعدنا يوما جميلا من الحياة
المتبذلة العابثة لشباب اسبارطة... كنا فقراء وبوهيميين، ومفلسين،
وساخرين من كل شيء... من الحضارة التي لم نصنعها، من الألعاب
الرياضية، من الآلهة الإغريقية، من أبطال الأساطير، من ملوك الإغريق،
من الشعراء والسياسيين والطباخين أيضا... لكننا كنا نحب أثينا
بالتأكيد.

أثينا التي أحببناها لم تكن أثينا التي أحبها المؤرخون والسواح
والسياسيون ورجال المال والمدعون والأغبياء والعجائز... أثينا التي
أحببناها.. هي أثينا الليل حينما كنا نرحل من مكان إلى مكان على
أقدامنا، أثينا الحب الذي طلبناه في عربة كبيرة من البياض، أثينا التي

نمنا في شوارعها الضيقة، أثينا التي عشنا فيها فروض الحب كما في الكتب القديمة المقدسة، حيث القبلات الرائعة هي قرابيننا، والمصاطب المنتشرة قرب تماثيل الآلهة هي معابدنا، أثينا النهار... حين نرنو إلى نسائها وهن يسرن مثل أميرات قديمت منبهرين بأجسادهن والوسامة التي اشتهرن بها، أثينا النهار إذا ما نشرنا الورد على عبيدها ومحظياتها، وتعربنا لنفرغ أجسادنا كما تفرغ السلال في بيروس حين تأتي السفن السادسة المجاذيف من الإسكندرية، أثينا النهار في عيون بلون الرماد متوهجة مثل حجر كريم، وإذا ما تبادلنا الحب تحت الأشجار وتشاجرنا في الحانات عند منتصف الليل، وإذا ما عدنا أنا وماريلا إلى حجرتنا... وفتحت النافذة، فأضاء شعاع القمر جسدها الأبيض العاري الجميل على سريري الصغير.

أثينا التي صنعتها الهدنة المقدسة ومتفرجو ساحة المصارعة والسفر بأمان إلى أولمبيا، أثينا التي صنعتها العربات التي يقودها الفرسان المتسابقون، والأبطال المتوجون بالغار، والمسارح المحلية المصنوعة من الحجر، أثينا هي إكليل الزيتون الذي يحمله هرقل والنساء المنوعات من دخول مسرح الأولمبياد.

*

كنت أشعر أمام التماثيل البيض بشيء ما يتوارى وراء الظل، أشعر بنكربول الأموات وبرائحة الموت القديم واللذة المهجورة، فالأرض التي أشبعتنا موتا كانت تتنفس صامتة، أما المرأة التي يتصاعد في أعماقها هذا الحس الأسطوري العظيم فهي تشعر دون شك بثبات فضيع، تشعر بالنهاية التي تبزغ وتحل الساعة الأخيرة محلها، كانت تحرق في

جدار البحر الصامت، واللون الأزرق الذي يزداد كثافة، وبالمدينة التي
تتنفس حابسة أنفاسها ومسمرة عينيها في الضياء.

كنا قرأنا قرب تماثيل الأولومب البيض قصائد أناجنوستاكيس
المبكرة، الأبيات الطويلة ذات النهايات المنغمة، الأفكار التي تأخذنا
بعيدا نحو الأعماق، التي تقودنا إلى تقديم جميل غير مُزِن أبدا، إلى
فكرة مقتضبة، وحقيقة متجهمة وصورة مميزة، إلى الشعر اليساري ذي
النبرة الوقحة.

كل شيء يكذب ارتياب الشاعر قالت لي ماريل...وفي الفضاء
سمعنا أغنية قديمة كان سيفيرس هو الذي كتبها:
(أنا جوال بين الأشجار الصفراء في المطر الساتق
على المنحدرات الصامتة،
لقد حملت بأوراق الزان
لا نار على قممهم التي أصبحت مظلمة).

-VII-

شعر.. مدينة.. وعناق طويل

(مسافرون من قرف إلى آخر من صمت إلى آخر من وحدة إلى وحدة
أكثر وحشية أيضا في ما راء الزمن الجامد هنا عند تخوم اليأس أعود
لأجذك ضربة شفرة عميقة قمرا فاقد دمه حريقاً ليلا قطبيا زويدة
المدارات وحلا دنيا)

الشاعر اليوناني ميناس ديماكيس

*

سرنا أنا وهي متعانقين طوال الليل في شوارع أثينا... نبحث عن
الكلمات الناقصة، عن قبلة الحب الموضوعة في محل عام، عن الأشياء
الأكثر بساطة والتي تتواءم مع الأحداث، عن الأفكار الأضعف والتي ما
زالت طرية حتى الآن، عن الكوارث الكبيرة التي مرت بها أثينا.
"الشاعر في أثينا أكثر قيمة من أي شيء، أكثر قيمة من الماء
وأقل من تماثيل الأولومب"

هكذا قال لنا الرجل العجوز في الباص، الرجل الذي كان يقرأ
الجريدة وهو يصغي لما رايلا التي تنغم بفمها الشهوي قصائد
أناجنوستاكيس، تنغم قصائد شاعرها الوحيد، سلاحها الصامت،
وينظرونها الجينز المحكوك من عند مؤخرتها.

(لا يقرأ الشعر في الشوارع إنه يقرأ في المعابد والأماكن المقدسة).
(بل يقرأ في السرير...) قالت ماريلا وهي تتعلق بذراعي وتضحك.
كانت الزهور الطالعة من الصخرة الصلبة تواجهها، كان البحر
الأخضر المحزوز بالعروق يذكرنا مرة أخرى بحب التوهج في المطر الرقيق
البطيء، كانت زهور الصخرة بأشكالها المتعددة تتمايل على شعر
ماريلا:

(لا أحد يتكلم
أنت تركتني أمسهم بعد الصمت بين أشجار الصنوبر،
ونباتات الدفلى، والأشجار الطائفة)

*

ذهبت مع ماريلا إلى آيا نيكولاس المحي العادي في العاصمة أثينا
الذي كان يقطنه الشاعر ريتسوس، تعرفت على صورته بقامته الطويلة
وذراعيه النحيفتين وشعره المرسل إلى وراء وذقنه الرمادي، دخلنا حجرته
التي تضم طاولة مستديرة وعلب سجائر محلية وسكيتشات لبابلو
نيرودا، رأينا لوحاته الزيتية، وصورة الفوتوغرافية والبورتريهات
الكثيرة، شاهدنا أصص الزهور التي نسقها بيده، قرأنا قصائده المكتوبة
بخطه، وقلبنا كتبه الكثيرة والمتنوعة، لقد شعرت بوجوده -حتى بعد أن
مات- وهو يشرب القهوة اليونانية ويأكل الكعك المحلي ذا الرائحة
العطرة، ويقطع الطرق والأزقة القديمة في أثينا بحثا عن مقهى بانس أو
مطعم يرتاده العمال والفقراء والبحارة الهرمون... تعرفت على المكان،
على أثينا الليل وهي تعلق فوانيسها الزيتية التي تتوهج وسط الضباب،
واشترينا أنا وماريلا سمك السردين الطري، مثلما كان يفعل راهب

القرية في شعر ريتسوس، وعدنا في الطريق الرئيسي حيث الصيدليات
المنوية، ومحطات الوقود المفتوحة، وأسلاك التلفراف التي تنز في
الريح، هناك رأيت بائع الفاكهة الشاب الذي فتح مظلة سوداء كبيرة فوق
عرسته، ورأيت التضاد بين البرتقال الذهبي والمظلة السوداء، وسمعت
صوت المطر الذي جعل المشهد جميلا وغريبا وغامضا... هذا هو السفر
إلى أثينا.. إنه الشعر كما حلم به ريتسوس.

-VIII-

فنان من أثينا

(يحجبنا الضباب هذا المساء

اختفى فانوس المركب

ظهرت بشكل غير متوقع

في مركز القيادة كي تريني. ترتدن الأبيض ومبتلة عقدت شعرك
مثلما أستطيع هناك عند دخل مرفأ (يفاسو) تمطر دائما خلال الصيف.
السائق المبقع بالشحم يترصد أقدامنا في القفة لا نظري بتاتا إلى أعلى
الصواري مع العاصفة، ستصابين بدوار الغنم).

الشاعر اليوناني نيكوس كافادباس

*

في مساء يوم أحد عرفتني ماريلاً على فنان أرمني يعيش في أثينا
اسمه ديريك أوشكان، كان شخصية شهيرة بغرابتها وشذوذها كان
يرسم على كل شي وفي كل مكان، على طاولة المطعم.. على الصحن
... على المنفضة.. على أرض الرصيف، على ورق قدر، على ورق دفاتر،
على ورق الجدران، على الصحف القنية، وعلى جسد حبيبته، يخطط
بخطوط منفصلة مربعات وشجيرات وأشكالاً بشرية وطيورا، يرسم وهو

يأكل وهو ينام وهو يتحدث، وهو في الباص أو في المقهى وعلى الأرض وتحت ظروف متباينة ومناخات متعددة، وعلى مختلف المناضد، مناضد المطبخ، والحدائق، ومناضد تنظيف الأسماك، التي تأكلت بفعل الماء، والملح، وظلت عادة فرش المنضدة بالصحيفة هي الأثيرة لديه لأنها تمنحه فرصة أن يرسم ومن ثم يبحث عن كلمات وخطوط ورموز جديدة، ثم ينقلها بعد التمهيص والتدقيق كاملة إلى الورقة.

*

في مرسوم ديريك أوشاكان الصغير أكلنا سندويشات بسيطة وشربنا النبيذ، فأخذت صديقتة تعزف الغيتار وتغني أغاني شارلز أرنافور وهو مطرب فرنسي من أصل أرمني أيضا، بين آونة وأخرى يصدح صوته، بأغنية *sur ma vie* أو *il faut savoir* أو *Hier encore* وهي الأغاني الشائعة للأخير، بينما كنا أنا وماريلا وفنانة تركية نجوب مرسومه الصغير الذي غطيت جدرانها من الأرض حتى السقف بالرغوف، وامتلأ بالكتب والموسوعات وألبومات الرسم ورزم المجلات القديمة. كانت الفوضى هي السائدة في المرسوم، الستولات استاندات الرسم، منضدة الكتابة الضخمة، ألواح الكرتون وأكوام المخطوطات، ورزم الرسوم وصحون السجائر الضخمة والمتنوعة، ووسط جبال المفكرات الرثة والصور والغلايين وعلب الدخان وسجائر "غلواز"، كانت هنالك لوحاته المؤطرة ببراويز خشبية.

حين أتذكر دريك أتذكر أثينا، إنه يرتبط بالمكان تماما، يرتبط بالأريكة التي يرسم عليها، باللهجة المدنية التي يقلدها، رزم الكتب التي يحتفظ بها، يتصفحها ثم يرسم على أغلفتها ما يراه مناسبا لها، يرسم ويرسم حتى على ملابسه الداخلية وهو يدخل السجائر الثقيلة.

قال لي مرة بعد أن أشعل سيجارته، ورمى عود الشقاب في صحن
السجائر، وسعل: "يا صديقي أنت لن تنسى أثينا... لأنك أحببت
بها.. أثينا تترك شينا مأساويا دائما وهذا ما تنبه له مسرحيوها العظام
.. صمت ثم قال:
(أثينا ... مثل السجائر الثقيلة دخانها يدخل الجسد مثل المبرد
ومن النادر أن يشفى شخص من حب أثينا).

بقايا رجل من أثينا (من دفتر ذكرياتي في أثينا وبيروس)

البحر في بيروس

-تسكعنا من الصباح حتى المساء- ما معنى أن نكتب الشعر في

بيروس.

ها هو باخوس يطل من مخبأ على بحيرة، من تجوال عاهرة على
الرصيف، من صيادين وأطفال عند البحر، من امرأة تبقى في الخلف وهي
تندesh من مهارة الذكور، من النشاط القاسي لبحارة يفرزون أقدامهم
في الرمال، من نهد صغير يبهرني، من نادل ثقيل تحت ناظري، من
شحاذ يرفع اصبعه محتجا.

نزل ريتسوس من موقع المراقبة، وحمل بيده عصا والتحق هناك
بزمرة الصيادين وبالقنطة الصغار الذين يحملون أسماكاً بأيديهم.
أثينا/ساحة أمونيا

الأسى

هذا الأسى لا ينتهي مطلقاً.. فأنا لست هوميروس.. ولا أنت ميدبا.

الله وحده يبحث اليوم عن سعادة مخلوقاته، ليس لنا مكان ولن نتوقف مساءً في الطريق، كل شيء قبيح سوى النسيان والوقاحة، وهذه النادلة التي تحادثني عن سقراط كان السائح يحتك بمؤخرتها.

هذا الماء يسقط قبل أن نلقي أسماكنا فيه، هناك حوض نافورة، وجندول صغير وقارورة شهواتنا على الرف... في يوم.. سنسبح مثل أسماك عاريتين على البلاط وستسمعين همس سمكاتي في حوضك.

شارع بيروس/ساحة أمونيا

ليس لي موعد معك

أمن هذا الصباح الرمادي تأتين؟

إننا ممتن لك بهذا الضعف وبهذا الضجر، ممتن لك بباقة الشكوك، بالوردة العاطلة، بالنصيحة التي تقدمينها لي كعارف خبير.

إن خرجت اليوم من شقتي، أين سأذهب: الشوارع مهدومة، الأشجار يغسلها المطر، البنايات التي تحجب السماء تثير الرثاء، الحافلات تهيمن على الشارع مثل كابوس، المقاهي مغلقة في المساء، والنساء يغادرن في الظلام خوفاً من أن ينظر إليهن أحد.

ومن ثم بعد ليس لي موعد معك.

بيروس

بقايا امرأة من أثينا

كل ما تركته في شقتي بقي كما هو.

بعد رحيلك سلّة الغسيل في الحمام كما هي. الجوارير ملأى

بأشيانك. مشدات صدرك، كالسونك الأبيض، بنظلونك الجينز الذي
اشتريناه مستعملا، جواربك. وقميص به عرق امرأة، كل شيء في
حجرتي الصغيرة يحمل بقايا عطرك، حتى جسدي يحمل وسم امرأة من
أثينا مثل ندبة.

هل أقول أحبك.. ها أنا أدير وجهي إلى الحائط وأحملك في
تشكيلات ورق الجدار كي أتفادي كل ما يذكرني بك.
أثينا

يوم

اليوم أشعر بالضياح أكثر مما مضى.

أنت تبكين أمامي وتضعين يدك على الطاولة.

هذا صمتك وكأسك مثل بشر نقيه البدوي في الرمال، هل أشرب
قليلا ثم أهرب من المقهى وأسير بعيدا عن القافلة؟ أضرار قميصك
المفتوحة تلاحقني، ستيانك تحت شراشفي، فندقك يبتعد عني، حقيبتك
ما زالت في الممر وحذاؤك تحت سريري، والباص الأصفر الذي كان يقلنا
فيما مضى لم يعد يتوقف لي.

أنا لست شيئا أبدا إن لم أحبك.. ماذا سأفعل هذه الليلة إذا ما
شارف كل شيء على الانتهاء..

هل هذا ما يجعلك غير مكترثة أو دارية بي؟

المرأة التي أحبتها قبلك فارقتني أيضا دون أن تقل لي شيئا أبدا.
أثينا

مدينة أخرى

هذه المدينة المصنوعة من حجر لم تكن يوما في إيثاكا... أنا أختبئ
منك في قبو الفندق الرخيص، ليس لدي سوى مؤونة قليلة من الأقلام
وما تصنع القهوة منه، ليست لأفكاري ظلال، ولا لجسدي رائحة.
كنت أشم شهوتك من بعيد، أشمها وهي تختبئ في مغارة أحد غيري.
وأنا هنا وحيد، ليس لدي سوى رأسي، أحاول أن أضاجعك وأنت
بعيدة،

أحاول أن أعيش من دونك... يا لها من مهمة وعرة.
أثينا/إبيدروس

معنى

ما معنى أن نمنح أنفسنا لهذه الرحلة في الباكسة المتوجهة إلى أثينا؟
أية لغة أخرى يتوجب علينا أن نتعلمها؟ أي رأس لباخوس يتوجب
علينا أن نضحى به؟ لقد نمت شفاها من جديد، وعلينا أن نقبل بعضنا
بعضا، علينا أن ننام في الشوارع الباردة، أو على الأرصفة المحاذية
للأكروبول، أو في المترو، أو في الحدائق التاريخية أمام التماثيل
المنتصبة مثل شحاذين.

علينا أن ننام ونسمع للفيلونسييل وهو يعزف للعشب الناعم،
يعزف لقشور البيض المسلوق على الرصيف، وللحقن في الصيدلية.
أو علينا أن نطرق أبواب الفنادق ونصرخ:
نحن.. غرباء.. وغرباء وشعراء أيضا.
أثينا / شارع بلاكا

كوكب

حين رفعت العاهرة اليونانية يدها .. تخيلت أنها تشير إلى نجمة جديدة في المجرة.

كنت نائما على المصطبة الباردة دون عشيقة دون أهل دون طعام دون قهوة.

نظرت إلى النجمة في المجرة التي سينتهي الأمر بهؤلاء الفلاسفة إلى اكتشافها. نظرت إلى البهجة الشريرة المتوقدة من العلوم والمعارف وهي تحيي بعد موتي كل ما تستقر عليه يد هذه العاهرة اليونانية.

قلت لها: سيدتي لقد استقر البرد على الأكرويل، ومات الفلاسفة منذ زمن بعيد، وأنا علي أن ألتقط من الكلمات، والإيماءات، والنظرات أثرا ولو بسيطا للبهجة.

سيدتي.. أنا دون وطن.. والشعراء الذين كنت أعرفهم أصبحوا جنودا.

أثينا

الإلهة-البائعة

كنت أتفحص عيونك أمامي وألتذ بسماع حكاية قديمة.
هل تعرفين الأساطير؟ أنت تناولينني علبة السجائر وتلتذين بموت إلهة من بعيد.

أناديك.. أصرخ عليك.. أنت لست مصنوعة من حجر، لست مصنوعة من غبار، لقد حلمت طويلا بتهدمك وسقوط أسنانك، حلمت بوجودك حقيقة لا خرافة.

أنا أنتظر إعلان حداثك في الغد أيتها الآلهة البائعة. ليس لدي علامة على موتك سوى الإبرنيتات الموجودة في علبة الدخان، وشيء ما سينطفئ في داخلي غدا.
أثينا

وحيد في العالم

لم يسعد السفسطانيون بهذه الأسئلة، لم توقظنا ثرثرتهم في منتصف الليل، لم تشحب كلماتهم في الفجر مع النجوم. استيقظت في الليل، كنت في فندق رخيص، ليس لدي مال أنفقه على نفسي.. ليس لدي سؤال أطرحه على أحد. الكتاب مفتوح بالقرب مني مثل جرح قديم، كان علي أن أقرأ بعض الفقرات لفيلسوف غريب، كان علي أن أفتح يدي للمقهى المليء بالضوضاء، للعجوز الذي يقرأ الجريدة، لشهوة النادلة المكبوتة، للشاب الذي أعجب الحكماء به هنا لفرط وسامته، للشحاذة السكرانة النائمة بالقرب مني. غير إنني استيقظت مرة أخرى في منتصف الليل، لا شيء... إلا لأنني غريب.. وأعيش هذا العالم وحدي.
أثينا

نعاس

كيف سأعثر على النعاس، ومن سيسرد لي حكاية؟ سمعت في اليونان حكايات كثيرة.. سمعت أساطير وحكايات عن ملوك وآلهة.. سمعت حكايات الفلاسفة كلهم.. غير أن النوم غادرني.

قالت لي النادلة الحكيمة:

سيدي ستنام طويلا.. ستنام طويلا وعميقا حين يتوقف اليونانيون
عن سرد حكاياتهم ويقدموا لك التبيذ والطعام والنساء..
أثينا

تهدم

ماذا تبقى لنا لنقوله ؟كأسا بعد كأس ..شرينا الأسى ولم نوقظ
الآلهة في الكتب التي قرأناها ، نحن نفتح عينا واحدة لنرى الأبطال في
الأساطير، نبسم بغموض للقطعة التي تطل من النافذة، نقبل بعضنا على
الجوع ثم ننام ثانية...
هل أوقظك هذا الصوت ... لم يتهدم الجدار الذي بناه الأباطرة .. هذا
صوت قلوبنا وهي تتحطم..
أثينا

عزلة

نحن هبة عزلتنا .. هبة النقاوة التي ستفطس يوما ما .
عزلة الآخرين الذين يأتون نحونا ،
تعالى فقد أمتك شمس الأكروبول ونحن لن نبحث بعد اليوم عن
أحد، لن نبحث عن شيء آخر أبدا ، سنستلقي على الحجر الأبيض في
ساحة في أثينا... وننسى سريعا هبة الشمس... لأننا مسحورون منذ
سقراط بالظلمات..
أثينا

بيرون

قاسية هذه الساعة الموضوعة على جدار المطعم.
انتظرتك .. كنت وحيدا وأنا أنظر هذه الوجوه التي تتساوى
بشراستها. لم تعد الكتب تحمل اسما نعرفه، الصحف لا أجرؤ على
فتحها والحب يسقط كالغبار بين اصابعي.
سيدتي أنا جندي غريب في ضوضاء أثينا وهنالك قيصر واحد في
بيروس سوف يعاقبني.
٥/ شارع إيرمو

أثينا/ امرأة

بعد أن نجوع في الليل.. في برد أثينا.. نعثر على عري البلاطات
الباردة. أنا سكران وأنت شاعرة فمن ذا يدلنا اليوم على كلام نتغطى
به.

ها أنت تذهبين إلى الحمام المهدم الذي تفوح رائحة البول منه... و
أنا أخلع معطفي الرث في الشتاء، لي حنين إلى الأفعال الناقصة، لبلاد
أخرى لا يعرفها السفسطانيون ولا الفلاسفة، للقرب منك والنأي عن
الأكربول، للتمهل ونحن نلوك اللغة المستهامة، للدخان الخارج من اللغة
المستعادة في فمك، للطريق العصي على القبض، للطريق الذي لا يفضي
إلى أثينا.

أنت الإلهة التي تزبحني وتبعدني، اتركيني على الاقل ابحث عنك.
بيروس

تمثال سيفيرس

أنت شاعر مقصي غير إنني لا أعرف أحدا غيرك.
صديقتي اليونانية ستكرهني في الصباح وتنسحب مني...العالم
سينسحب مني.
هذا شعري القبيح وأنا فخور به. صمتي اليوم سيتكلم نيابة عني،
سيقول شيئا شنيعا مثلي، أنا لا أحب الفلاسفة ولا الشعراء... لي رغبة
أن أكون وقحا... لي رغبة أن أشتبك وأحيي المغمورين مثلي... أحيي
الذين اختاروا الرصيف وخطى الجرح وفخامة الضياع.
نحن الأبطال المتجردون من كل شيء، والرصيف بلادنا.
أثيكا

فكرة

لا أحد يحمل فكرتنا غيرنا.
العدم هو الذي يمنح الوجود للأفكار، يمنح وجودك، وجود الحاجات
بين يديك... كل شيء هنا يمنحنا عدمنا، قمصانك التي تحمل رائحتك،
صندلك الأصفر، اللوحات التي تعلقينها على جدار الحجرة، الطاولة
المكسورة بالقرب من الحمام.
على رف المطبخ خلعت ملابسك وتعريت. أنا أمامك لم يبق لي
سوى كتاب صغير ممزق الغلاف، وقلم نصف مملوء بالحبر، وقد أفرغت في
المساء فيك كل عاطفتي..
فتهيني للتخليق... فأنا لست من أثينا.
أثينا

رسامة بولونية

- أنا رسامة بولونية وأنت شاعر.. سيدي جننا من بعيد لنتضاجع
على عشب الحدائق في أثينا.. لننام تحت السماء السوداء وقد لمعت
النجوم فيها.. لنجوع في الصباح ونبحث في المساء عما يلقي السباح به
على الأرض.. تعال.. إلي
أنا هناك أنام قرب حمام مهدم تفوح رائحة البول منه..
ولا رغبة لي سوى أن أنهي حياتي في سرير.
أثينا

(أنا زهرة الناور... أنا حصنة الألهة) رحلة إله الجواهر

(بداية منفي، السماء تمطر ظل بياقة مرفوعة ، السماء تمطر ،
كنت في السادسة عشر عندما كانت السماء تمطر، المدينة تخشى الغرباء
وتحب مواطنيها ، اتخطى ، اسحب أقدامي ، لدي رسالة منك اعيد
قراءتها ورسالتني لاغنيها ، انا قارة تحلم بالهاوية)
مالك حداد
رصيف الزهور لا يجيب

-I-

مقاطع في تقريض المدينة الغامضة

الجزائر-ساحة أودان

الفجر هو وقت عمالها وبحارتها ومقاميها ومغامريها، والليل هو ليل أسرارها وألغازها وسحرها ونبوءاتها. أما في الضحى، فلم أجد سواك يا مدينة البحر مكشوفة تبزغين أمام النهار الطالع، مولودة من جديد، بريئة بعد أن اغتسلت من عرق الجنس ونداوة الخمر والحشيش في الليل، بعد أن اغتسلت من دم الضحايا المذبوحين في الزقاق، أنت نائمة هناك، غافية على البحر، ما زلت تستشعرين شراسة الطباع أوقات الزحام، وعند أوقات الصراع تعيشين على فتات الخبز في المراكب وسط البحر.

أفكر فيك وفي مينائك الكبير، وفي مراكبك وبحارتك ورجالك ونسائك، أفكر بمرافئك العظيمة المسيجة التي تدخر تاريخك، لا مرافئ بالميرو ولا مالقة ولا الإسكندرية تشبه مرافئك، لا تأريخ يشبه تاريخك ولا عادات تشبه عاداتك، ولا مغامرات تشبه مغامراتك، ولا بحارة يشبهون بحارتك، ولا أسرار الموانئ في العالم تشبه أسرارك... أنت المدينة التي عرفها هراقلس مع صحبه العشرين قبل أي أحد آخر، أنت

الصراع الإلهي القديم الذي ورثه اللاتينيون بعد سقوط قرطاجة، أنت جزائر بني مزغنة.. طرة الصباح التي سافر إليها المرتحلون على بياض الساحل وخضرة المروج... وهذه موانئك إلى اليوم تحتضن أساطيل البندقية وفلورنسا.. بل كل شيء يرتبط بمجدك يا مدينة البحر: قمار وحشية، خمرة ومناضلون، شهداء ومجرمون، شعراء وفلاسفة عظماء، صحراويون وفقراء، محظيات وقرانصة، نساء وجنود استعماريون، وعاهرة إلى حد ما ترتبط ببحرك... ولكنك وحيدة يا مدينة البحر أمام النهار الطالع مستلقية على الرمل ساهمة هناك وكل من يراك يدعي امتلاكك: رومان، فينيقيون، عرب، برايرة، أتراك، فرنسيون، مواطنون، مستوطنون، فلاحون، وحتى سواح غرباء... لكنك وحدك يا يد الآلهة لن تكوني إلا لنفسك... لست لأحد على الأرض لأنك مثل البحر والسماء والهواء لا أحد يقوى على امتلاكك... وحين سرت في شوارعك... وصعدت السلم العالي المظلل بالأشجار شعرت بأني ساكن متجذر فيك، لمستك... لمست جسدك كما لو كنت أتحنس جسد امرأة جميلة... أنت الكهلة ما زلت صبية... صبية سمراء شبه عارية... أنت الآلهة المستلقية على البحر... وقدماك سابحتان في اللازورد الأبدي...

*

الجزائر/ رصيف الميناء

بحارتك رقيقون يدخلون بشرافة، وينظرون إلى الناس بعيون أليفة. شحاذوك ضاحكون، وعمالك يطلقون اللعنات والشتائم دون تحفظ أو حياء..

مراكبك عتيقة وصدثة، شوارعك وساحاتك واسعة، وعلى الأرصفة
المبلطة بالحجر يجلس باعة الكتب العتيقة والتذكارات، وعند الميناء
أطفال نائمون على الإسمنت، وشحاذون يتململون بجلابيبهم الوسخة
استعدادا ليوم طويل.

ميناؤك مزدحم، وضجيجك ينسيني فرحة الموسيقى التي تهب
بعذوبة من المقاهي على الرصيف.

صيادوك بوجوههم البحرية المعروفة يقفون عند المحطة يبيعون
السماك الذي يلط في السلال، عمال يأكلون الخبز ويشربون الشاي، أو
يتحدثون بصوت خفيض، زبالون يتيهون في الحدائق ينظفون المصطبات
ويلمون الحشيش.... غبطة تحتاحني في ازدحام شوارعك وأنا أشعر بأني
أنفذ فيك، وفي روحك، أشم روائحك، وعالمك، وفراشك، وعرق
ملابسك، ومناخك الحار المفعم بروائح الأسماك، أشم صدا البواخر،
والحبال المجدولة المبللة، والمياه المالحة، أحس بضراوة حريك من أجل يوم
جميل، من أجل يوم للفقراء القادمين من الضواحي ليعملوا في شارع
فانون أو ساحة أودان، ليصلحوا الرصيف أو ليسدوا الثقوب.

*

غائبة أنت عنا، غائبة مثل عراء البرد، وطالعة إلينا بفضل روحك
البيضاء وجسارتك القرمزية، الحب لا يناوؤك، ولا يجعل التاريخ من
إسمك خرقا للمحارم، أنت المراهقة التي تعرف كيف تبتسم لأول وجه،
دون أن تخون تناقضها.. وها أنت اليوم ذابلة ولك ملامح وجه رهينة أو
وجه أسير... لماذا تهربين وتراوغين؟ عثمانية كنت... قرصانة تقاتلين
عند البحر موسومة بأشرس الطباع، خادمة صرت في بيوت الأثرياء

الفرنسيين، فللهم فخمة على البحر، وهم يقضون ليلتهم في النوادي
والفنادق الفخمة، يتزينون بأحلى الملابس ويضعون أئمن العطور،
ويسهرون حتى الصباح... بسيطة أنت، همساتك ناعمة، وضحكاتك مثل
كركرة الأطفال، وفي الليل غانية وسكرانة ساقطة على الرصيف...
وعند صلاة الفجر تنهظين.

*

الجزائر/شارع ديدوش مراد

باراتك رخيصة، ميناؤك الكبير واسع، أسواقك الشعبية مزدحمة،
وأحياء الفقراء تعجّ بالغبار والذباب، ويروي أهلك حياة البحر بصورة
مشيرة، تدور ألسنتهم بلا كلل وهم يروون عنك حكايات كثيرة، لكنك
أسيرة... وخفك الذي يدهس الرمل في الصباح يذيب على البحر غضارة
الليل ونداوة الصباح... مبلة في المغيب، رأيتك... وقد غرد الشتاء
على صخرتك، ومال البحر بلسانه الأزرق الطويل وبلل ثيابك.

هذا هو الأفق والفجر المرتجف والوقت المملوء بالفصول، هذه منازلك
التي تضحك من كل قلبها ومراكبك التي تصطخب، وريفك المذعور من
الفراغ، هذا بحرك بلا أثار وفيضك وناارك الحفيضة وطيفك الأسر... هذا
طفلك الأبدي بملابسه الفقيرة يروي منذ الفينيقيين قصته، هذا نورج
الشموس على الأرض، برادة الحديد الساقطة على رصيفك في الأبيار،
هذا الشتاء الذي هلّل أمام المسرح البلدي بالمطر، نير الغفلة المفاجيء في
مكتبة لاتيسير موند، نظرة الطفل، عمرك العاري في الفراغ وقد حدده
اتجاه الريح، ها أنت تمنحيني اليوم كل ما منحتيه للكحول.

*

في مطلق الأمواج أصبحت غريبة الوجه، خالية الفرع... الأيدي
الحشنة تذبح أبناءك مثل الخراف... ماذا نسميك إذن؟ نسميك
البحر... وأنت الشجر... نسميك الضلالات وأنت مدينة البحر... فلحبيك
سبب ولسعادتك سبب، وليس لك نظير في أي مكان آخر... ايكوسين
اسمك، سماك الفينيقيون وعبدوا عواصفك التي دامت طوال الليل، وبلل
المطر شعرك الجميل، هاربة منهم ومن القرطاجيين، وخائفة وأنت تدسين
برفق ساقك في البحر، ها هما ذراعاك على الأطلسي يحملان الرمل
ويهللان لخيال المراكب بصوت خفيض، وفي أعماق السكون كانت الآلهة
عارية، ترسم العقود على عنقك وتطويك كل ليلة بالورود.

للقرصنة فتحت بيدك ثوبك وعرضت لهم نهدين ناعمين في غامض
النور، فتجمعت مراكب القرصنة حولك.

الجنة أيام القطاف اسمك... وأنت الصبية ذراعاك مشغولتان طوال
النهار بالشمار، أكليلك عطر وزنارك مصباح، وأنت مثل فلاحه شابة
دائرة ظهرها لجنوب البحر ولغرب الجبال:

الكلام معك خطيئة ولمسك محرم.

*

عندما نقول الجزائر، نقصد الحب في وجوده المدور، البحر الذي يفرط
ببنيه، والباخرة التي تكمل سلالة القرصنة، نقصد الأحداث الباطلة التي
عرفناها، والموجة الكبيرة الهائجة، الكلمة التي تمتد مثل لبلاب، اليد
المبتورة التي ترتجف على الرمل، عندما نقول الجزائر نقصد شبابك الذي
يمد ضوضاءه مثل سعفة، الشباب الغض الذي يسرع، نقصد المراهقة
المتوحشة التي تحلم بيوم ثري أبيض يحفر دهليزه في الظلام، المجد الذي

كان مهجورا ، الشجرة التي فقدت برعمها ، والأيدي التي تمتد لتكليل
الظهيرة...

طالعة من سماء البحر ومن خبز الرجال ، أنت يا حجرا مظلم
وقاسيا إني قرأت في وجهك تطاغن هذه الوجوه ، قرأت في وجهك
ملاح أخرى حاملات مهاجرات ، وفي عرقك الذهبي يطير النهار إلى
غمامة ربيع آخر.

-II-

رحلة إلى الجزائر أو رحلة إلى أعماق الليل

(بعيدا عن نجمة، ساقطين إثر خطانا

بعيدا عن نجمة...)

فلنلم شملنا حتى وإن بعثرتنا الريح

فمن خلالنا نتواصل النار

حرارتنا سرقت ونحن نعج في المعابد نبقي مهجورين ونحن نحترق)

Etoile

كاتب ياسين

*

من البوابة الحديدية الضخمة لمطار بومدين خرجت إلى الساحة

المبلطة الواسعة، كان هواء المدينة الرطب والمحمل برائحة البحر قد غمرني

بنسماته الباردة، بينما كان مطر آذار يهطل بصورة متواصلة، وقد

احتفى المسافرون وسط الفوضى والصخب تحت المظلات والمسقفات

الألمونيومية والأفاريز الطويلة مختلطة أصواتهم بأصوات الباصات

والتاكسيات وأصوات الحقائق التي تكرر على الرصيف، لم يكن المشهد

صادما نسبة لي غير أنني تذكرت تلك اللحظة بالذات مشاهد عديدة من

روايات برترون عن الجزائر العاصمة، تذكرت سائق العربة البربري القادم من تلمسان، والمرأة العربية التي تطبخ السمك بالبوييت والزيت المغلي، تذكرت تلك اللحظة خطى إيزابيل إبركهارت المتوثبة على الرمل وكتاباتهما عن الثيمة الرومانتيكية لقصص الحب، تذكرت ملاحظاتها الرصينة المباشرة عن الجزائر التي اكتشفت فيها بغبطة عالم الإسلام، تذكرت كاسار البربري الذي اتكأ على طرف السور بينما هبطت الشمس خلف جبال الكرستال وهو يفكر بصوفونيزب .. فتاة البحر.

*

كان علي تلك اللحظة أن أقف تحت مطر الربيع غير عابئ بالماء الذي أخذ يسيل على وجهي... أقف هناك تحت رذاذ أذار وأنظر إلى البلد الوعر والمشجر والذي يحده ساحل البحر مثل خط صلب من بعيد، يحده كما كان الريف يحد نوسيكو القديمة، وكانت الفنادق والمباني ذات الطرز الكولنيالية تظهر من مكان إلى آخر خلال هذه الدروب الضيقة المغطاة بخضرة متراسة ملتحمة بزرقة الصباح، وكان بها، المدينة الناضج وثوراؤها يحوطانني من كل مكان، وفي الطريق الذي يمتد إلى أوتيل الأوراسي المطل على المدينة من أعلى، كدت ألمس الطراوة التي تقطر ببطء وتتمدد في الهواء الشفاف.

هذا الأوراسي... الأوتيل... الذي خاطب فيه ديغول الجزائريين وقال

لهم:

"je vous ai compris... فهمتكم"

هذه الجزائر الحية التي أوحى لي مشاهدتها التفكير بأرث عظيم كتبته أيد آسيوية في أفريقيا، بأرث عظيم مطمور في الجلد الأسمر

والملايس العربية التي تغطي أرضا كاملة من البحر إلى الصحراء، أوحى لي التفكير بكرم الرجال المحليين الذين أشبعونا ضيافة وفنطازيا، وكان علي أن أسأل الشوفير بالفرنسية فكلمني بعربية محلية عن خان القوافل الذي أنشأه العثمانيون والذي حل محل أفريقيا المسيحية، كان علي أن أصرخ بعد أن وطئت قدماي رصيف البحر:

"هذه الجزائر العظيمة.. هذه نكربول الأموات التي بشعتها الأخطاء المقدسة" ..

وكان علي أن أصمت حيث يتوهج البحر المتوحش لوهلة، بينما يخرج الجزائريون بعنفهم وحركتهم البطيئة وأصواتهم العالية مختلفين عن المستعمرين الفرنسيين وعن أناطول فرانس...

هذه جزائر الجزائريين والتي لم تعد تشبه الجزائر الموجودة في روايات مغالي بوازنا، أو روايات أرواندو، أو برترون الذي كتب عن الماضي الحي الذي رقد طويلا في تلمسان أو قسنطينة..

هذه بليدة التي لم تعد تشبه بليدة التي كتب عنها ألفونس دوديه... وهذه تيباز التي أحبها ألبير كامو.

هذه الأسواق هي التي أوحى لي التفكير بالروح التي رقدت في المقاهي التي زارها مثقفون من كل أنحاء العالم، وبالكثير من الأبيض والأزرق والأخضر في شوارع الجزائر العاصمة وأزقتها وسلاسلها، وبالأحمر الذي شغف به ديلاكروا، أوحى لي التفكير بأوتيلانتها حيث رقد كارل ماركس قبل قرنين في أوتيل السان جورج ليستشفى من برد أوربا، أوحى لي التفكير بتنويعات الصحراء السابحة في الضباب الخفيف، أو بوجوه النساء المختلطات المتكونات من أجناس المتوسط، أو بالرجال المتحمسين للحياة والمتمتعين بأهواء جامعة.

الصحفية نور الدين الغولي أوحى لي التفكير بالمغارة التي سجن فيها ميغيل سرفانتيس في الجزائر، حين خرج من صخب الحراس المحيطين به، ومن الإضاءة العالية، ودخل في المغارة وغط في سبات عميق.

سألني أسئلة كثيرة ولم أعرف ما أجبتها ولكني كنت أفكر بسرفانتيس وبالممر المبلط أمامه وقد لفه سكون وعتمة رطبة، ومن نوافذ المغارة العالية المظلة على البحر ذي الزرقة الداكنة كزرقة الصباح، كانت حلقات الضوء تصعد من المياة القريبة فتتحرك على القبب همسة خافتة.. كنت ألمح في المدى البعيد بابا عروج خلف شريط الأمواج الأبيض والرقيق، خلف الظلال المتكسرة على الجدران، بينما كانت تدفقات الضوء تتقاطع هنا وهناك على سطح الماء، لمحنا قراصنة ينامون في السكون المنبسط في الظلام على السطح العلوي للمركب الذي يرقد فوق موج مضطرب، وكنت أتساءل: بأي مضيق غامض كان الجنود الفرنسيون والإيطاليون والبرتغاليون يسيرون عبر الليالي الخالية حيث الضجيج الغامض يتصاعد من القصبة المظلة على البحر، حيث الكلام المبهم والإمارات المنسية التي يتلوها الشيخ أما الضباط الاستعماريين تؤكد اللمعان الشرقي للسجاد في القصور، والمصابيح المغطاة في الظل الشفاف.

قالت لي "إرحاب"، الجزائرية الجميلة التي التقيتها في قلعة بابا عروج:

"بعد الاستقلال حل الجزائريون -الشعب محل الإداريين الفرنسيين، والبرجوازيين المتحمسين والملاك المستعمرين الذين اجتاحتهم الأرض".

جزائر الجزائريين

هذه الجزائر إذن... جزائر الجزائريين منذ بني مزغنة لا جزائر الإلتراسيين أو الإيطاليين والذين كانوا يشبهون مأدبة المرتزقة في سالامبو... هذه الجزائر الطالعة من البحر بعد أن اختفى الجنود الفرنسيون وأبطال روايات كتاب الأقدام السوداء، مثل: انجيل ميكو الصغيرة، وفنست فياغوس المتحمسة، وسانتا لازاريو، واليهودية نومي، والحوذي بالتازار، وأنطونين الأعور القادم من بوردو... هذه جزائر الجزائريين بعد أن اختفى الجنود الاستعماريون وأرشيدوق العاصمة من القرى والضياع المعلقة على الجبال مثل أعشاش الصقور.

هذه الجزائر بعد أن اختفى التجار الصغار والمزارعون من الأبراج المسننة والأروقة المقوسة في القصبة القديمة، بعد أن اختفى المبشرون من منطقة القبائل بحقولها الوعرة، بعد أن اختفى اليهود من الأبيار ومنازلها ذات البياض الكامد دون بروزات دون تنوعات، وكل شيء يحيط بها غارق في صمت أبدي... سرنا في الطريق إلى القصبة، بمحاذاة البحر لنرى لوحات جديدة يشكل الديكور الاستعماري مجمل بنائها، المشاهد العظيمة للعاصمة النائمة تحت غلالة المطر، الأرض الخضراء البعيدة والتلال العالية التلون، مشاهد ديلاكروا الحقيقية وهذا الأحمر الصافي الذي لا تراه إلا في الجزائر، وهنالك المجموع الضئيل المليء بالغموض، والألوان البيتورسكية الواضحة والصريحة.

*

حين سرنا في سوق ديدوش مراد اكتشفنا عالم الجزائريين الحي والصاحب والثري:

محيط شعبي جميل.. محيط مكون من خليط وجداني وحسي، وسيط طفولي، عواطف صاخبة وغير منتظمة، سرعان ما يشورون، وسرعان ما يصفحون... كنا نسير سعيدين وسط صخب الناس نستمتع بالنسمات المنعشة القادمة من البحر، نستمتع بحركات الباعة وهم يصرخون:

" بسنك ميل خوية .. كاتغ سن .. فيان خوية فيان .. "

خليط من الأصوات الفرنسية والعربية والأمازيغية في سوق واحد، خليط ينمو في الامتداد الصاخب والوحشي للسوق، ومن الجانب الآخر كانت البنايات الجميلة غارقة بضياء الشمس، حيث الأشجار الرائعة تغطي السلالم التي تقود إلى شارع فرانز فانون، والأزياء الفاقعة الألوان تختلط بالغامض والفاتن من السوق، حيث الحداثق الرائعة متدفقة بالماء، ومن الأعلى كانت المدينة ترقص وسط سيرك من الألوان الملتهبة، وقد حلقت الطيور في سماء من ذهب.

-III-

القصبة القديمة ومدافع بابا عروج

كنت أبحث عن القلعة القديمة، عن مدفع بابا عروج الذي يستقبل بدخانته وباروده سفن البرتغاليين، عن النساء المفتصابات، عن الرجال الجائعين، وأقبية التعذيب حيث تنن النساء المخطوفات والرجال المتمردون الذين رفعوا على الخوازيق أو شنقوا وعلقوا على الرفوش، كنت أبحث عن القراصنة الساهرين وهم يدقون الطبول وسط البحر، عن المرأة التي كانت تبجع الغلايين المحلاة بالقنازع والتي رآها برترون في القصبة قبل قرن تقريبا، كنت أبحث عن باعة التوابل والأفاويه في البورت نف. غير أن مدينة البحر تغيرت كثيرا عن الوصف البيتورسكي الذي حبره الرحالة والمغامرون والجنود والحجاج والمستشرقون الأوربيون، ولم يعد هناك أرشيدوق الجزائر، ولا الجنرال شارل دوفوكو الذي كان ينصرّ القبائليين حتى قتله أحد الشبان الجزائريين في الكهف، ولا بيسيشاري الذي كان يدعو للسلاح، ولا جنود المهاري الذين يبحثون عن اللغز الصحراوي العظيم المصنوع من فكرة الموت وعظمة الصمت في الهضاب المترامية الأطراف، ولا بيسير لوتي الذي أحب واحات النخيل خلف جبال بليدة، وأحب المهاري والسراب الذي دوخ الرحالة في صحراء الرمال، وكره

البارود الذي هدده به رجال الطوارق، ولا ماسنيون الذي آمن بالرجال الذين رتلوا الصلاة على الأرض الصوفية أرض الزهد والتنسك، وراقب الذين غادروا الجبل وطاردوا الحيوانات الضارية خلف الرمال الممتدة، ولا بيير كامو الذي كان يتأمل الصمت الأبدي في الصحراء، النقيض المباشر للعالم الذي خلفه وراءه، العالم الذي لم يعد يصغ إلى صانعه... وفي القلعة لم يعد هناك بابا عروج يغوص في ظلام البحر مفتونا بعزلته يجلس والشبوق في فمه ونظراته الداكنة منشغلة بالسفن والغنائم.

*

"السوق التجاري العظيم كان هنا..." تشير الخارطة القديمة قبل أن يهدم الفرنسيون القسبة المحيطة بالقلعة، الشوارع الملتفة على بعضها مثل ربطة الخيوط، كأنما شحذت عشرون قطعة أضافرها بمزاج مرتاح كما وصفها تيوفيل غوتيه... هذه المدينة التي تمتاز فيها اللهجات والأزياء والبرائص والتي تشبه الكانبير نسبة للمارسييليين، والبتاوين نسبة للبغداديين، لاباتراد لسرول للإسبانيين، وهنالك المصنوعات الخشبية المطعمة بالعنبر، وقوارير الورد، والبابوجات الكثيرة، والسجاجيد الثقيلة، وكل شيء قديم.

هذه الشوارع التي شهدت انكسار شارل الخامس أمام حسن أغا في باب عزون، شهدت قصص العشاق في باب الوادي، منازل الأرستقراطيين الأتراك في وادي البحرية، ومن عمق البحر يلوح على الضفة حي القسبة الذي وطنه الأنكشاريون والدايات، وقسبة العرب حيث يتجاور فيها سوق السردين القريب من باب الديوانة مع سوق اللوح القريب من باب عزون. كانت هناك مقاهي القسبة الجميلة التي زارها تيوفيل غوتيه في

القرن التاسع عشر حيث جلس على حصيرة بالقرب من رجل قوي بوجه شاحب، وقد جلب له الصبي الجزائري الوسيم القهوة اللاذعة بكوب من الخزف، وجاء له بالغليون المحشو بتبغ عذب للغاية.

إنها فسحة الراحة المزدحمة بحشد من رجال يرتدون المعاطف والخرق ويحتسون الشاي والقهوة منطرحين على المنصة المكسوة بالحصيرة التي تستخدم للجلوس والنوم، وجوه الزهاد الشاحبة في برانصهم، العيون السود الواسعة، والجفون الثقيلة والمبتسمة، وتضيف الأردية التركية إلى هذه الأجواء الرمادية بقعا براقا من الأزرق السماوي.

كنت أبحث عن مقهى سيدي محمد في ساحة آرم في الجزائر العاصمة، وأراد كما رآه الرحالة الأوروبيون في القرن التاسع عشر، كما كان بفانوسه المسود وبابه الخشبية المنخفضة، كما رآه الرحالة الأوروبيون بتذهيباته التركية العديدة والمرسومة فوق العتبة، حيث يدخل الجزائريون هناك التبغ ممزوجا بالأفيون، ويشربون القهوة المرة بالفناجين، كنت أعين المكان لأرى صاحب المقهى وهو يتحرك رواحا ومجينا حول موقده الصغير المصنوع من الخزف وسط بريق المينا والأكواب الصغيرة العديدة، بينما جلس الأوربي على الدكة، وقد خدره الأفيون حتى سقط بوق النارجيلة من يده بحركة متعبة، وكانت عيناه جامدتين مصويتين نحو السقف.

إنها القصة المتوحشة والتي تشع حرارة أمام الرياح الباردة التي تهب من البحر... إنها القصة... التي ذكرها أنوروه دي بلزاك في قصة سارازين، والتي كانت سوقا تجاريا عظيما حيث ارتادها الملاحون المسلمون وتجار النصارى بأساطيلهم القادمة من البندقية وفلورنسا، ولجأ إليها المهاجرون الأندلسيون واليهود الشماليون بعد أن استولى بدرونفارو

واكسمينس على وهران ويجاية، فجاءها بابا عروج من جيجل ليقتل
سليم التومي في الحمام هو ورمضان شاوش ويجلس على عرش الجزائر.

*

وقفت هناك على المدفع العثماني القديم، على المدفع الذي نصبه
بابا عروج في القلعة القديمة أمام البحر ليصد به سفن الأوربيين عن
القصة، وكان القمر يرسم بشعاعه الأصفر على البحر الساكن شريطا
طويلا مذهبا، ويلقي ظلا أسود على اللسان الرملي الضيق، وكان سواد
البحر في الليل يلمع كشريط طويل من الفرو الغامق. لقد تبعته بوله
انعكاسات ضوء القمر على البحر في السكون الذي يتزايد
بعمق... تبعته من هذه الكوى الصغيرة التي كان يشغلها رجال بابا
عروج وحراسه، من هذه الكوى التي كان يحميها رجال القناصة الحليقو
الرؤوس، والمطفعون بالبياض.

كنت أتخيلهم هناك وقد أضاعت محياهم ابتسامة هادئة جمعتها
أسنانهم الناصعة، واستبشرت وجوههم المليحة تحت العمام المحمدية
البيضاء، كنت أتخيلهم وهم يتوزعون بفرح على الأبواب والكوى
والشبابيك وهم يحملون سيوفهم المعقوفة وخناجرهم القصيرة الأنصال،
وحين يخرجون من القلعة فإنهم يتجهون نحو القصة بالتأكيد، يرون من
باب عزون مخترقين سوق الحوت بروانحه الضاربة كي يلجوا المساجد
بهيباتهم الصارمة، كنت أتخيلهم حين يقفون لحظة أمام باعة البرتقال
والعنب والتين البري ليشتروا الفواكه الطازجة ومن ثم يدخلون القلعة،
حيث يتحرك لابسو البرانص داخل كومة متشابكة لا توصف من الأذرع
والأقدام العارية.

-IV-

رحلة صغيرة في جزائر الليل أنا ونوري الجراح وأبو بكر زمال

كان الليل خارج القلعة مبللا بنسمات هوائية باردة، وثمة سواد شفاف يرشح من البحر، لم يعد يصل إلينا صخب الأمواج إلا كحفيف مخنوق ونحن نسير في شوارع الجزائر التي تتمدد وتشابك بموازة رصيف البحر، كنا الثلاثة (نوري الجراح الذي زار الجزائر في العام ١٩٩٨ ليكتب كتابه الفردوس الدامي، وأبو بكر زمال الشاعر الجزائري الذي رافق نوري في رحلته أوانذاك، وأنا)، كنا نسير في الراحة الصامتة لليل حول المضيق الصاعد الذي باغتتنا، من شارع القلعة في القصبة إلى الساحة الكبيرة أمام مبنى البوصطة القديم بربازته الإسلامية المميزة وحتى شارع ديدوش مراد، كانت السماء في منتهى الصفاء تميل إلى الزرقة القاتمة، وكنا نلاحق المدينة حيث يغور الضوء في المباني التي تتلاحق أمامنا، كنا نسير مستعبدين على صوت نوري الجراح أيام الإرهاب الدامية.

*

نوري الجراح هناك.. يرتحل في القطارات الليلية ويعبر طريق الموت الذي يصل الجزائر العاصمة بولايات الشرق في السهل المتيجي الشانك،

متخفيا بسحتته الشبيهة بسحنات الجزائريين المتمدين من بنادق الإسلام المسلح وخناجرهم التكفيرية الباشطة، ومنفلتا من الحماية الحكومية المسلحة التي تراقب تحركاته واتصالاته... من الذي يقتل؟ هذا هو السؤال الغامض، هذا هو السؤال الملغز والمحير الذي طرحه نوري الجراح على كل من رآه، هذا هو السؤال الذي دخل من أجله في الظلام الدامس، وفي أقبية المدن الغامضة، وسار مع الشاعر الجزائري أبو بكر زمال رفيق رحلته في الشوارع الخلفية التي كانت تعصف بها قوى المرتزقة والأسلحة المرببة، حيث اختلطت هناك هوية القتلة بهوية الضحايا، واختلطت البنادق الرسمية ببنادق الارهابيين، واختلطت المصالح الإقليمية بالمصالح الاستعمارية.

هذا هو السؤال الذي طرحه أول مثقف عربي يصل الجزائر أيام محنة العنف الدموي، وفي ذروة الصراع المسلح الذي ذهب ضحيته الصحفيون والمثقفون، وبرحلة غرائبية تصل إلى حد المغامرة المتطرفة، إذ لم يصل الجزائر إبان ذاك غير خوان غوتسيلو وبرنار هنري ليفي وغلوكسمان من الأوربيين، هذا هو السؤال الذي دون نوري الجراح كتابه من أجله، ودون رحلته المغامرة على مدار شهر كامل تقريبا أمضاها في المدن التي عصفت بها زلزال الموت والدمار، متنقلا في جولات متتابعة برفقة الشاعر أبو بكر زمال الذي عبر معه في القطارات الليلية التي تنقل الجنود والفقراء والعمال والفلاحين، ليلتقي هناك بالمثقفين ويجعلهم يتكلمون بأنفسهم عن الوضع التراجيدي الذي مرت به البلاد دون وسيط.

سرنا في شوارع الجزائر في الليل حيث تغلق الدكاكين والمحال والبوتيكات والمطاعم أبوابها، ويتسرب آخر السابلة إلى المنازل، ولم

يتبق في المدينة غير الذاهين إلى الخمارات أو السائرين إلى منازلهم
مخترقين المزابل التي خلفتها الأسواق العشوائية في شارع ديدوش مراد ،
وقد أخذ نوري الجراح يسرد ذكريات رحلته القديمة ونحن نسير في المكان
ذاته الذي جعله مكانا لمواعيد رحلته السابقة، ديدوش مراد :

مبنى اتحاد الكتاب، ساحة أودان وينتهي بنفق جامعة يوسف بن
خدة، آخر ما بناه المستعمرون الفرنسيون قبل جلائهم، وبعد ذلك بئر خادم
الذي أقام فيه في مغزل صديقه عدلي صادق، ثم المرور في الأبيار
وحيدرة حيث يقطن الأثرياء والضباط والوزراء والديبلوماسيون، ومن
هناك كان يرقب الصراع المسلح في حي القصبة، وسيرورة الحياة اليومية
في الحامة العليا أو في القبة أو في بئر مراد .

كنا نسير على صوت ارتطام البراميل على الأرض أو على صوت
النوارس التي تطلق صيحاتها قريبا من البحر، وكان الأفق يغيب شينا
فشينا ونحن نمر في الطرقات الملتفة من شارع محمد الخامس مروراً بمبنى
البريد ذي الرابطة الإسلامية المميزة إلى المسرح البلدي الذي وقفت أمامه
فرقة موسيقية تطلق ألحانها الشعبية الجميلة في الليل الساحر، ثم دخلنا
أحد البارات الذي يشبه البارات الفرنسية وعلى صوت الكؤوس وأصوات
السكراري وأصوات الندل وصوت ارتطام الكراسي بالطاولات والضحك
والكركرات والمسامرات واصل نوري الجراح سرد ذكرياته عن المثقفين
الجزائريين الذين التقى بهم أيام المذبحة، أحاديثهم لقاءاتهم أفكارهم
همومهم حياتهم ومعاناتهم تحت الإرهاب والإهمال، وعلى الصوت
الموحش للمقطار الليلي الذي عبر به جبل بوزريعة المعتم، حتى الوصول
إلى قسنطينة في الفجر عبر جسر معلق، أو الدخول الخطر إلى القصبة

في الصباح قبل يوم العيد، مجاورا في مسيره رجلا يجر خروفا ليدخل
زقاقا بالغ الضيق غير أن الجادة تنتهي بحائط مسدود .
... "مغامرة مجنونة" قلت له.

مغامرة أشبه بالدخول في لعبة المتاهة للوصول عبر طرق ملتفة
ومقطوعة، مغامرة المرور في مدينة لا يجرؤ أحد الدخول إليها منذ
الفرنسيين.

أو مغامرة المرور في جغرافية القتل عبر السهل المتيجي، الوصول
إلى مدن الشرق العاصفة، الجلوس برفقة شعراء الاختلاف، أغاني الرأي،
هموم المثقف، هموم الحياة، ثقل الحياة السياسية وانسدادها، غياب
الآفاق، وسيف الإرهاب الذي ذبح أكثر المثقفين توهجا.

*

كان الشك العائم تقطعه فترات صحو خفيفة، أما الكؤوس فقد
كانت ترتفع بلطف على رائحة التخمر الرائعة والمنعشة، امرأة ترتدي
معطفا عتيقا تقف عند البار الخشبي تشرب كأسها وتتبادل النكات مع
النادل، ورجل يرتدي قبعة يجلس بصمت وهو ينظر إلى النافذة، ولم يبق
من نور الشارع إلا خط ضئيل يضعف كلما توهجت النجوم في السماء
الشاحبة. كان البرد يتصاعد من باب البار المفتوح والذي يخفف علينا
رائحة التخمر الثقيلة، ومن الزجاجاة العريضة كنا نراقب شارع ديدوش
مراد الصاخب ليلا، الشارع الذي ينتصب وحده متوجا بالحياة المواردة
والمصطخبة، ومتوجا بالبارات والمتسكعين والمشردين وباعة الفرق
والسابلة والحيطيست والمغامرين الصغار والعاشرات والسكارى والمثقفين
والطلاب والعمال والمخبرين..ومن يدري ربما بالإرهابيين المتكرين أيضا.

*

مررنا بالنصب الإسمنتي الكبير وسط المدينة، ثم صعدنا الطريق العالي والذي يلتف من شارع فرانز فانون والمكتبة الوطنية ليصل إلى فندق الأوراسي... كان الحديث ممتعا عن أدباء الجزائر المعاصرين الذين تحدث معهم أو التقى بهم نوري الجراح في رحلته: واسيني الأعرج، الطاهر وطار، آسيا موساي، حميدة عياشي، بشير المفتي، مرزاق بقطاش، حرز الله بو زيد، نصيرة محمدي، وتحدثنا عن أشياء كثيرة تناولها كتابه أيضا: الثقافة المشرقية والمغربية، الثقافة المعربة والفرانكفونية، المعربين والفرانكوفيل، التعددية الثقافية والاستقطاب الثقافي، كهف سرفانتيس الذي تحول إلى مزيلة، وسراويل التماثيل في الحديقة العائلية.

صعدنا في الطريق الممتد إلى أعلى وكان البحر يومض بالمصابيح المعلقة أعلى المراكب، شيء مذهش بتهدجاته وانتفاضاته الكبيرة. كل شيء متوهج مثلما ما كان في الزمن القديم: التضاريس العظيمة التي تمتد مثل صور فوتوغرافية قديمة، المنحدرات الكبيرة والواسعة والظلال المضينة التي تنطلق نحو الرصيف، البهاء الخلاب والمدهش للمباني التي تتسلق نحوها عبر درجات مظلمة بالأشجار، النيران العظيمة الموقودة خلف المنازل البعيدة، وهنالك صورة البطولات الضارية التي تتحرك أمام الارتعاشات الأولى للمساء.

كنا ننتعش بهذا الحديث على صوت كلاكسات السيارات التي تمر بسرعة وعلى الهياكل المرصعة بالذهب، والحلقات القديمة السبك، وأعشاش الطيور المعلقة على الشجر الضخم الذي يظلل الشوارع. كنا نسير على هذه الشوارع التي غطتها في يوم ما الأضحيان والقرايين، هذه الأرض المزينة بالعناقيد وتحت كل هذب من أهدابها الذهبية رأينا أحلام الناس وقد ذهبت إلى البحر البعيد والغامض.

بليدة ورحلة إلى الجبل

بليدة... إنه المكان الأقل صخباً والأكثر بيتوريسكية في العالم منذ مارميه، إنه المكان الذي يمكنك أن تصطاد فيه النساء الشهوانيات بلا سنارة، المكان الذي تستسلم فيه للجمال وتقرأه مثل كتاب مفتوح، غير أنه غامض ووقور وأزلي أيضاً، وشعبي جداً بقذارة شوارعه وضجيج أسواقه، وربما مازال البائع الذي التقاه مارميه نانما حتى اليوم بعينه الجامدتين المنتشيتين وغليونه في فمه، وربما مازلت إحدى قدميه حتى الآن منتعلة والأخرى حافية!

انطلقت رحلتنا في الطريق الطويل الذي يلتف بعيداً عن البحر، انطلقت رحلتنا في الصباح المشرق نحو المكان الخرافي القديم، نحو المكان الغامض الذي يحوي شيئاً من السحر والأعاجيب كما رآه سترابون أول مرة قبل مئة عام تقريباً، رآه بنعاماته الهاربات وغزلانه الشانهات في الهواء، وبإبسيلاته التي لها لعاب يشفي لدغة الثعابين.

رأيناه وقد غادره الاستيطان القديم، وأزال عن نفسه آثار الاجتياح الفرنسي الذي كبّله من يديه، ولم نجد المكان الذي أوحى لسالكرو رواية فندق الأطلس والتي قرأتها قبل أعوام في بغداد، ولا رواية علي الثعلب

لأوسيب دو سال، ولا تلك الفكرة الاستعلالية والتمثيلية دون حدود
والتي كان يحملها الفرنسيون عن العرب.

*

بليدة... كان هذا الاسم وحده كافيا ليطلق خيالي على لوفيلوس
ومارميه في فتح ستاولي والوجه العظيم للقديس أوغسطين.
بليدة... كان هذا الاسم وحده كافيا أن أربطه بأسماء أخرى مثل
مستغانم، ووهران، وقسنطينة التي حافظت بشكل كبير على لونها
المحلي، كان كافيا أن يطلق خيالي لأرى النساء الجزائريات وزينتهن
وغنجهن وهن يرقصن على الدرابك في صحن الدار الذي يضيئه
الفانوس، كان كافيا أن يطلق خيالي لأرى الأوضاع المخدرة التي تضج
على الموسيقى فيصعد كل ما هو غريب وقدرى ومقدس، وأن أشم رائحة
المقاهي والحياة الفظة القاسية لرجال الفياق والكتائب المحتلة والتي
عانت من ضربات المقاومين، وأن أحسس بيدي تناثر الألوان والمجازر
السابحة بالدم، وحين ألتفت إلى وراء أرى الجزائر العاصمة هناك...
جائمة من بعيد على الجبل الأبيض... هادئة مثل وكر الصقور.

*

كنا نصعد نحو الشريعة بدورات ملتفة بطينة، والنساء يحملن
الطناجر الفخارية ويصعدن على الطريق الأخضر المسور بأشجار الأرز،
هناك في المرتفع العالي كان سطح الجبل أخضر داكنا بامتداده الغامض،
وتنوعه المذهل والملتف مثل وردة هيرمون. هذه التموجات الأرضية التي
كنا نصعدها سارت عليها قوافل المسلمين منذ ألف عام، هذه الصخور
هي ذاتها التي ظللتها الأشجار المتنوعة، الأشجار التي لا تفقد أوراقها

أبدا، وسورتها أشجار أخرى بجذوع معقودة وتفرعات عصية متشابكة وأوراق ساكنة معتمة.

قبل أن نصل إلى الشريعة البيضاء والتي يغطيها الثلج صيفا وشتاء توقفنا، فمسكت بيدي أوراق الأشجار الخضراء المدورة الدبقة، والتي كانت تكسو الحجر، وكانت الصخور تخترق الأرض بطبقات متعددة، طبقات رمادية تميل إلى الزرقة الباهتة، وتبرز من بعيد مثل عضلات متينة لهيكل بشري، وهنالك صخور أخرى تتمفصل على الأرض الحجرية متأهبة لاختراق التراب الذي يغطيها، بينما كانت الطبقات والكتل الصخرية السوداء الباهتة والهشة والعميقة تنحدر نحو الأسفل.

*

انذهلت.. أول وصولنا إلى الشريعة، انذهلت عند وصولنا إلى هذا السن الصخري الناتي، والمغطى بالثلج والضباب والغيوم الكثيفة، انذهلت بعد أن رشتنا عاصفة بيضاء من الثلج مفاجئة، وغطتنا بنديفها المدور من رؤوسنا حتى أقدامنا، كنا نسير فوق الثلج بصعوبة لنصل إلى نيران موقدة على مقربة من شجرة ضخمة معمرة، وقد لسعت أقدامنا ووجوهنا وأجسادنا رطوبة قارسة، منعشة إيانا كما لو كانت رشفة من نبيذ لاسع فواح، كان الضباب يغطي كل شيء، والغيم يحجب الرؤيا تقريبا، وكنا نسير وسط الغيمة ذاتها التي تطر أسفلنا، وراحت أشجار المرتفع المتجلدة من البرد تصفر في الأعلى، وأخذت القناديل المكفهرة ترتجف على الأعمدة بسبب تيارات الشارع الهوائية الباردة.

كنا نسير متكئين على بعضنا (أنا ومحمد ظريف ومنذر العقيلي)

معا، نميل يمينا ثم نميل شمالا متزحلقيين على الثلج، أو متكومين على بعضنا.

كنا نتابع سيرنا باهتزاز افقي على أثر أصدقائنا الذين سبقونا، والذين مروا قبلنا في هذا الطريق الملتف والذي يقود إلى مبنى علمي مختص بالحيوانات المنقرضة، وفي الطريق تنشقنا رائحة الثلج، رائحة برد السهوب النائية، لقد تنشقنا ذلك اليوم طراوة البرد القديم وكأنه موجود هنا منذ ألف عام، استنشقنا رطوبته المنتشرة بعمق في المكان، وشقينا الغيوم التي غطت الأبنية الغارقة في الغشاوة المتحركة، كنا نسير باحثين عن ضوء نافذة، أو عن باب قريب، وكنا ندرك بأننا نعيش بعد ذهاب الشتاء زمن عاصفة ريفية نادرة، وتنشق رائحة بلبل ليلة شتوية أصيلة، كنا نشم هذه الرائحة الفواحة المتكونة من الماء الذائب والشجر المتفسخ بقلق على ذلك البعيد الغامض، على ذلك الشيء الطفولي أبداً، والذاهب بغير رجعة، أو ذلك الشيء الأسطوري الذي يباغتنا على نحو مفاجيء ويجعلنا متسمرين من المتعة.

*

لقد جذبنا ذلك اليوم شيء أسطوري مفاجئ إلى هذا المكان العالي، إلى هذا المكان البعيد الغائم، لقد جذبنا شيء غامض إلى أزقته الصغيرة الملتوية والمغطاة بالثلج، إلى أشجاره الغربية المثيرة للذكريات، وجذوعه المسننة العمرة، لقد جذبنا شيء ملغز إلى مبانيه الصغيرة شبه المهدامة، والمهجورة تقريبا، والتي يمكنك أن ترى من خلف أسجتها الواطئة الغرف ذات الأقواس الحجرية المشيدة فوق الأبواب، وخلف الغيم والضباب يمكنك أن ترى الأفنية الصغيرة ذات العنابر، وأبراج الدجاج، والكراسي

المفروزة في الثلج، والمصفوفة تحت أشجار الأرز المعمرة، هذه الأفنية لا تقل سحرا عن الأماكن الأسطورية أبدا.

*

لقد عشنا تحت هذه الغيمة الثلجية العذبة شلالا من الذكريات التي لا تنسى أبدا، يا لها من براعة ذلك الديكور الأبيض، ذلك البياض الناصع الذي أخذ يغطي كل شيء، تقريبا، كل شيء، يحيط بنا في هذا المكان النائي.

يا لها من روعة تتجسد ذلك اليوم في هذا السرو المزرق والأرز الضخم، يا له من فردوس في ذلك الريف الصاخب الذي يبرز تحت البياض عبر تعارضات الضوء والظل، شيء لا يشبه الطقس السيئ في الليالي الشتوية أبدا، لكنك تشعر وأنت تنتعش تحت رطوبة الثلج القارسة بطراوة الهواء القروية، الشوارع التي تفتح فيها أشجار الأرز العالبة، والنديف الأبيض الذي لا يهدأ وهو يطير في الهواء فيفرش الأرضة بطبقات بيضاء ويتراكم في الأركان التي لا تصلها الرياح قرب المداخل، ويلتصق بطبقة رقيقة على زجاج النوافذ.

-VI-

كامو والجزائر

يوم الجمعة سرت في الطرقات الجزائرية الملتفة أبحث عن أغاني الراي الجزائرية، وبعض الأصوات الجزائرية التي تغني بالعربية، وكذلك كنت أبحث عن بعض الأشرطة الفرنسية لأشتريها.

كان الرجل الكبير السن الذي وضع على رأسه قبعة طويلة يجلس على قارعة الطريق ويضع على الأرض مجموعة كبيرة من الأشرطة والإسطوانات تحمل صور أدبث بياف، وشارلز آزنافور، وجاك بريل، وموستاكي، وغيرهم، وأخذت أشتري منه بعض الأشرطة وهو ينصحني بأخذ هذا وترك ذاك، وعند حافة الكيس الذي يحمله كان هنالك كتاب بالفرنسية يحمل عنوانا مشيرا للغاية، على الأقل نسبة لي: " ألبير كامو في الجزائر..." فسألته إن كان يبيع هذا الكتاب، قال لا إنه كتابه الذي يقرأ به دائما، وسألني السؤال الدائم:

"أنت جزائري...؟"

"لا.. أنا عراقي"

فقال بصورة حميمية "tu et irakien! alors on est cousin" .. أنت عراقي إذن نحن أبناء عم.. ثم تكلم معي بالعربية... وقدم لي كتابه المفضل كهدية.

جزائر ألبير كامو هي غير جزائر الجزائريين بالضرورة، مهما كان الحب السري الذي تحدث عنه كامو، أو إدانته المبطنة للإستعمار الفرنسي للجزائر، أو إدانته للمقاومة الجزائرية، أو الصورة الترميزية التي كتب بها عن الجزائر بوصفه الوهج الباقي من الامبراطورية الامبريالية المتأخرة... جزائر ألبير كامو تأتي من تقاليد مصادرة فرنسا للجزائر لا من الجزائر، من الإنشاء الأكثر فصاحة والذي يطلق في الطاعون أو الغريب معاناة تقليدية للجزائريين الأصليين إلى أبعد حد ممكن، دون استحضار حقيقي للعنف الذي مارسه الفرنسيون هناك، يأتي من مرسو، أو من ريو، أو من الاحتفالات التذكارية للسكان البيض، أو من المراسيم المعقدة إلى درجة أسرة.

ربما وصلت في طريقي مرة إلى المكان الذي ضرب فيه كامو موعدا مع ماكس فوشيه، لمناقشة موضوع الفتاة التي كانا يغازلونها، على الشاطيء، المفروش بالحصى وبمحاذاته المزراب القذرة كما روى هذه الحادثة جول روا بعد خمسين عاما تقريبا، ربما وصلت إلى حي بلكور -بلوزداد حاليا- حيث قضى كامو طفولته، الحي الذي صورته في كتابه المحيط والمكان، شارع ليون الذي كان فيه منزله، وربما سرت على الطريق ذاتها التي سار فيها متظلا بأشجار اليوكالبتوس العملاقة التي تطرد البعوض وهو في طريقه إلى مدرسة بيجو التي تحولت اليوم إلى مدرسة عبد القادر الجزائري، سرت على الطرقات ذاتها وأنا أشهد الحقارة mepris التي صارع الجزائريون ضدها، صارعوا ضد مرتكبيها ضدهم وقد عكسوها اليوم على كل ذلك الأثر الاستعماري الذي جاء جول روا بعد خمسين عاما ليعيده في ذكرياته عن الجزائر التي ولد فيها وعاش فيها في منزل زوج والدته، الدركي المحارب القديم.

وفرحت كثيرا لأن مفتاح خادم زوج أم روا في سيدي موسى، لم يعد يجلب الماء في مزرعة الكولون، ولا يكنس الساحة، ولا يغسل عجلات العربة، ولا يربط الحصان، ولا يقدم الأكل للكلاب، ولا يحمل البطاطا على ظهره، ولا ينظف الاسطبل، ولا يحلب البقرات، ولا يسقي أشجار برتقالاتهم، ولا يذهب إلى البئر ليملاً قرية كبيرة ليضعها في مطبخ الكولون، ولا يجمع روث البقر ليسمد به الحديقة، ولم تعد زوجته زهرة تحضر لهم الكسكسي وتغسل ثياب السادة وتكويها... مفتاح اليوم هو السيد وزهرة اليوم هي السيدة، وعلى الكولون القديم جول روا أن يقدم احترامه قبل أن يدخل المزرعة.

*

حينما كنت أسير في شوارع الجزائر لم أشهد حقيقة هذه المدينة التي كانت مصورة على نحو فعال ومبالغ به في روايات كامو، لقد أجلت عن نفسها الصدا الذي علقها وبرزت في شكلها وروحها وهويتها الأصلية، هؤلاء الناس الطيبون الذين يبحثون عن الخبز الصعب في يوم ضار، المدينة التي لا تشبه باريس ولا براغ ولا فلورنسا، المدن المنغلقة على نفسها كما سماها كامو نفسه، إنما الجزائر التي تفتح في السماء مثل قم أو جرح، كما قال كامو أيضا.. الجفاف الذي يحدثه الإفراط، البلد الفريد الذي يهب الانسان ما يقدمه له أبناؤه الأكثر بؤسا والأكثر فاقة، الشباب الدائم، ملجأ الانتصارات الفذة، والمزحة التي يطلقها بائع البطيخ حين يجزر عربته الفارغة فيصيح بالصبايا الجميلات اللاتي يصادفنه: (اتصعدين يا حبيبتى)... لقد رحل الفرنسيون ولم يعد يوم الأحد كثيبا ويشعا مثل مقبرة برو، ولم تعد هنالك اكداش الذوق الفاسد

التي تكشف عن كآبة رهيبة وعن تمرد، وعن موت حقيقي، وعن حقد أسود، هذا الحقد الذي رفض كامو المشاركة فيه.

*

مات كامو ورحل شارل تيار وجول روا وبقيت الأرض الموعودة التي شهدت تضاريسها وشمسها المحرقة الدافئة حفلاتهم، ولم يعد ساحل البحر الموغل في توحشه أو ظهر السهوب المترامية مكانا لقضاء إجازاتهم أو محطات للسعادة التي تركتها لهم غنيمة المغامرين والقراصنة من أجدادهم، هذه الجزائر التي مر بها هؤلاء واشتركوا بتلك العنصرية الشرسة تجاه الناس المحليين والأصليين، لم تكن يوما كما حلموا بها أو أرادوها: الجزائر الدائرة في الفلك اللاتيني، أو الجزائر البربرية التي تعود رغما عنها إلى أصولها اللاتينية المسيحية، أو كما حلم بها أوديسيو جزائر أفريقيا الشمالية ذات البعد المتوسطي والطابع اللاتيني... إنما جزائر الجزائر التي حلم بها الجزائريون أهل البلاد الحقيقيون، أو الجزائريون الذين ولدوا بها وحلموا بها مثل جان سيناك الذي سمي نفسه "يحيى الوهراني"، فولادته الجزائرية اخترقت سديم الفلك لحبه وتركته عاريا- كما كتب في روايته مسودة الأب- وجعلت منه أداة استفهام لطلائع المتشككين من الرجال بالضد من الذين حملوا في سياراتهم ريع الوطن ليقاتلوا به أهل الوطن الحقيقيين... لقد كتب سيناك أيام حرب التحرير أيام وقع الأسماء، وبريق البنادق، بأن في الجزائر ضحايا يسقطون من أجل الجزائر، وسجل وقائعه الحربية جنبا إلى جنب محمد ديب وكاتب ياسين واسماعيل آيت جعفر ومصطفى الأشرف.

-VII-

دخلنا (أنا والكاتب التونسي علي مصباح) مكتبة كبيرة قريبة من ساحة أودان المحاذية لشارع ديدوش مراد في الجزائر العاصمة، كانت المجلة التي تحمل صورة الروائي رشيد بوجدره واضحة وموضوعة في زاوية على الرف، وقد صرح بأن المستقبل الأكيد هو للرواية العربية في الجزائر وليس للرواية الفرنسية... على مقربة من المجلة المكونة في الزاوية البعيدة كانت الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية من الكتاب الجزائريين كثيرة وتغطي الرفوف تقريبا، وكانت صور الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية معلقة على الجدران مثل كاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون وآسيا جبار والطاهر جعوط وغيرهم، دون أن تكون أية صورة للكتاب الذين يكتبون باللغة العربية.

سألت البانعة التي تتكلم الفرنسية بطلاقة عن بعض الكتب الحديثة، والإصدارات الجديدة وإمكانية الحصول عليها، وقلبت كتبا أخرى: أطالس، قواميس، موسوعات أدبية، روايات، دواوين شعرية، كتب سياسية، وسوفونيرات عن الجزائر، ورحلات استشرافية، وألبومات للفنانين الفرنسيين الذين مروا بالجزائر، ومذكرات سياسيين، وكتب عن الثورة والاستقلال، وأخرى عن الإرهاب، وهناك كتب مترجمة من الفرنسية إلى اللغة العربية وبعض الروايات ترجمت من العربية إلى

الفرنسية، وهنالك دراسات مهمة في النقد الأدبي، والاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، وقائمة طويلة تبين بصورة لا بأس بها التنوع المذهل في الثقافة الجزائرية وتطورها.

وهنالك كتب كثيرة لجزائريين يكتبون باللغة الفرنسية... ولأنني أجهل أكثر الأسماء الحديثة الموضوعة على الكتب طلبت منها أن ترشح لي أكثر الأسماء شعبية وانتشارا بين القراء لأشتريها... فجمعت لي روايات كتاب عديدين أصدرها رواياتهم في فرنسا أو في دور نشر محلية في الجزائر تطبع كتبها باللغة الفرنسية، منهم: ياسمين خضرة، رشيد ميموني، الطاهر جعوط، صادق عيسات، حبيب أيوب، سفيان حجاج، علي مالك، أمين الزاوي... وغيرهم... وبعض هؤلاء يكتب باللغتين العربية والفرنسية.

طبعا ذهب زمن الرواية الإكزوتية الجزائرية والتي كتبها كتاب جزائريون مولعون بالطريقة الفرنسية في النظر إلى الجزائر، مثل: رواية "زهرة" لحاج حمو عبد القادر، و"رقصة أولاد نايل" لسليمان بن براهيم وديني، ورواية "العلاج" لشكري خوجة، و"مريم في واحة النخيل" للشيخ محمد، و"هند" لآسيا زهار، و"ياقوتة سوداء" لعمر ماري لوي، و"ليلي شابة جزائرية" لدباس جميلة، ورواية "إدريس" لعلي التهامي، ورواية "السباق وراء النجمة" لحمري الطيب وغيرها الكثير... ممن قرأتهن في بغداد قبل أكثر من عشر سنوات.

*

الجزائر ضحية الاجتثاث الثقافي بشكل ملفت، بل إن الصراع بين التعريب والفرانكفونية بلغ أكثر الأحيان موقع الصراع الدامي، هنالك

قتال حقيقي، والكثير من الناس فقدوا حياتهم بسبب هاتين البنيتين المتفارقتين البنية المعربة والبنية الفرانكفونية والتي تحتل الإدارة والتعليم، وإن كانت فرنسا تبنت كعادتها ودعمت البنية الفرانكفونية في الجزائر فإن المعربين كانوا هم ضحايا العنف والإهمال والتهميش حتى من قبلنا نحن المثقفين في العالم العربي، بل كان اهتمامنا منصبا- طالما المؤضة تأتينا من فرنسا- على الكتاب الذي يكتبون باللغة الفرنسية وهكذا نترجم لهم كتبهم ونوليهم الاهتمام الفائق.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتبة لاتيير موند القريبة من الجامعة واشترت روايات وكتب لكتاب يكتبون باللغة العربية، مثل حميدة عياشي، ويشير مفتي، مراد بكرزا، فضلا عن كتاب آخرين كانوا مشهورين بكتاباتهم باللغة العربية بل هم يشكلون جزءا لا يتجزأ من المشهد الثقافي العربي، مثل رشيد بوجدر، والطاهر وطار، وأحلام مستغاني، وواسيني الأعرج، وبمنظرة متفحصة وأمينية أيضا، نجد أن الكتابات باللغة الفرنسية لا أهمية لها على الإطلاق، وهذا ليس موقفا سياسيا أبدا، إنما قراءة أكثر الروايات بما فيها روايات ياسمين خضرة وروايات الطاهر جعوط هي مضيعة للوقت، روايات مكتوبة بلغة فرنسية فجأة، وبطريقة بدائية تفتقر للقيمة اللغوية، ولو قارناها بالروايات المكتوبة باللغة العربية فإنها تشح أمام روايات أحلام مستغاني ورشيد بوجدر وواسيني الأعرج.. وحتى روايات الجيل الأصغر نسبيا مثل حميدة عياشي ويشير مفتي، فإن روايات الأخيرين تفوق روايات الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية باللغة والحساسية والتجريب والتنوعية أيضا.

كتب المرحوم كاتب ياسين إن الفرنسية في الجزائر هي غنيمة حرب... ولكن لا أعتقد أنها غنيمتنا إنما هي غنيمتهم، ومع ذلك فإن ما يثير الاهتمام حقا هو الجيل الجديد من الطلاب والكتاب المعربين والذين يعيدون لنا الصورة معكوسة تقريبا، لتصبح اللغات الأخرى في بلداننا غنيمة ثقافة ومشاقفة لا نصبح نحن وأدبنا غنيمة حرب واجتياح ومصالوة.

*

قبل رحيلي عن الجزائر وقفت في شرفة فندق الأوراسي المطل على البحر وتساءلت:

أهذه هي الجزائر، شمس ترتفع في السمات، وسحب بيض قادمة من الجنوب، بحارة بملابسهم يقفون عند الساحل وأقدامهم المطينة تبقع الرصيف... هذه أنت إذن يا مدينة البحر مثلما كنت شابه أبدا، غانية، مراوغة، عذبة، وجميلة، ونحن شيوخ متعبون بلحي مشعثة، نطلق أنينا حينما نراك تذهبين لغيرنا، أنينا حزينا أشبه بأنين حيوان جريح... نحن مجنونون بك: سواح صغار، فنانون، موظفون براتب بسيط، مخادعات مدنيات، رجال، نساء، كلنا متعلقون بك، مثلما تتعلق العائلة البسيطة بابنتهم الجميلة.

أسواق ، جوامع وشعراء رحلة إلى طهرات

(عند الغروب في زحمة حضور الأشياء المجهدة، ثمة نظرة متريصة تبصر حجم الوقت، وعلى الطاولة ضجيج فواكه ناضجة، ينساب نحو جهة إدراك الموت المبهمة، فيما الريح تهب لحاشية الحياة الوديعة، شميم المزرعة المتراكم فوق بساط الفراغ، وكمهفأة يمسك الذهن سطح الورد البراق، ويروح عن نفسه نزل المسافر من الحافلة، يالها من سماء صافية، وخطف امتداد الشارع غربته. عند الغروب)

الشاعر الإيراني سهراب سبهری

-I-

شعراء جبال البورز

"بعيداً عن الدروب المعروفة، مرّ متخفياً، حيث كل غابة،
وكل جسر يعرف النشيد"
الشاعر الإيراني أحمد شاملو

*

لا أتحدث عن رحلة النبي دانيال الشاقة، ولا عن مغامرة لصيد
كبير، إنما عن رحلة إلى طهران، إلى كلاسيكية الأدب الفارسي، إلى خان
شاه نامه العظيم دون أن أعرف شعراء كثرًا يقرءون في مقهى صغير
أشعار جامي، أو حافظ، أو الشيرازي، ولا كتابات ملا صدرة أو عبد
الكريم سروش.

*

من مطار أتاتورك حملتني الطائرة ومرقت بي في ليل إيران البهيم،
فجر جديد على جبال البورز المتعرجة، على مت دامافاند الملوكي وقد
غمرنا ضباب طهران الأبيض، سائق التاكسي الذي أقلني إلى الفندق
طلب بقشيشاً عالياً وبالدولار، ظنني مليونيراً أو تاجراً، رفعت يدي
أمامه إلى الأعلى وقلت له أطلق النار!

وفي فندق آزادي كل شيء، لا معقول وسريالي وساخر مثل حاجي بابا الأصفهاني التي ابتدعتها عقلية جيمس موير الساخرة، تأخذ مفتاح حجرة ليست حجرتك، والجمال يأخذ حقائبك إلى شقة ليست شقتك، وموظفة الاستعلامات بالرغم من جمالها التاريخي الساحر فإنها بلحظة أضعفت جوازي.

الشاعرة الإيرانية معصومة آصفي لحقت بي وقبلتني رغم وجود رجل دين في الصالة، وأخذتني إلى مطعم دريند التاريخي لتناول الكباب الإيراني بالسماق على أنغام الموسيقى الساحرة، النساء يدخن السجائر ويطرحن الإشارات عن رؤوسهن، والشادور أصبح أكثر تجسima على الأجساد من الشادور القديم.

أدهشتني الشوارع الفسيحة الرائعة، المنتزهات الفخمة ذات الظل البارد وعطر منات أشجار السرو المغروسة منذ القاجاريين، المنازل بأفنيته الكبيرة وزجاج نوافذها الملون، سوق كارافانسيراى بممراته، وصفوفه المقبية المنخفضة، مسجد الشاه ومدراسيه، وفي المساء سرنا على طريق كالوس الجبلي بقممته المغطاة بالجليد، بتنا في منتجع كلارادشت الجميل، سبحنا في العيون الساخنة لمنتجع رمسر الساحلي، زرنا المناطق الأثرية لماسولة القديمة، تجولنا في الأسواق الشعبية على امتداد بحر قزوين، زرنا البرسبوليس ونقش رستم، ثم وقفنا أمام قبر حافظ، أمام القبة التي ترتفع إلى الأعلى كرمز للروح الصاعدة نحو السماء وتحديثنا عن الشعر الفارسي الذي تأثر بالشعر العربي.

*

"تأثير اللغة العربية على اللغة الفارسية مثل تأثير اللغة الرومانية

على اللغة اللاتينية، الرومي، الخيام، سعدي، حافظ، ناصر خسرو، العطار، و جامي كلهم تأثروا بالقرآن و الشعر الجاهلي و الأموي و العباسي، سعدي انتحل قصائد المتنبي، وفردوسي رغم عنصريته لم يستطع أن يستغني عن المفردات العربية في شاهنامته" قالت معصومة أصفي ذلك وهي تتعلق بذراعي وتحاول أن تضبط إشاربها الذي انزلق عن رأسها، شعراء آخرون كانوا في حديثها: ميرزاده عشقي الذي قتله بهلوي، عارف القزويني و فرخي يزدي الذي تم تخييط فمه بسبب قصائده المحرصة ضد الشاه، الشاعر والأمير القاجاري ابرج ميرزا الذي مزج الغزل و الحب المجازي بقدرح أبناء زمانه من سياسيين وغيرهم، بروين اعتصام و قصائدها العاطفية ذات الصبغة الإنسانية و المشحونة بالنصائح و الحكايات.

*

مشينا معا في الأسواق والشوارع وفي الساحات الواسعة، التقطنا صوراً أمام دكاكين الحلاقين، أمام باعة التوابل والمكسرات، أمام محلات المجبراتية، أمام المكتبات الكبيرة، أمام محلات العطاراة والبقاليات، أمام المطاعم التي تقدم البيبسي كولا والساندويشات. الوجوه هنا تذكرني بالشخصيات التقليدية من تجار البازارات في قصص صادق هدايتي، الروائي الذي انتحر في شقته في باريس في الثلاثينيات..وجوه تذكرني بشخصيات برزك علوي وروايته عيونها، تذكرني بشخصيات محمود دولت آبادي والذي يعد نجيب محفوظ الأدب الفارسي، بفروغ فرخ زاد التي تشبه غادة السمان من نواح كثيرة، بشخصيات رضا برهاني والمسرحي سعيد سلطانبور الذي أعدمه الخميني...أمام واجهة المكتبة التي توقفنا أمامها كانت الكتب الأجنبية المترجمة للفارسية

تتصدر الواجهة: بروست، توماس مان، مكسيم غوركي، نجيب محفوظ،
غادة السمان، طه حسين، توفيق الحكيم، غسان كنفاني، البياتي،
محمود درويش، عبد الرحمن منيف، نازك الملائكة، محمد مفتاح
الفيتوري، سميح القاسم، قال لنا كاتب شاب إن الرقابة شديدة ولم
تسمح بطبع روايات مهمة مثل يولسيز لجويس ومدام بوفاري لفلوبير
وغيرها.

*

سرنا أنا ومعصومة آصفي وكاتب شاب حتى وصلنا محطة القطار،
جلسنا في مطعم لغياب المقاهي، ثم انحدرنا صوب منتزه أجامشيد
الكبير وجلسنا تحت الظل الثقيل والصامت، كانت النسائم الباردة تخفق
على وجوهنا، وحديثنا انعطف شيئاً فشيئاً نحو الشعر:

تحدثت لي معصومة آصفي عن علي أسفندياري الذي دمر أسطورة
الشعر الكلاسيكي، عن نيماء الشاعر الكتيب الذي قال:
هذا دلوک في يدي وأنا بترکم ألوح بالماء من بعيد.

تحدثت لي عن برويز ناتل خانلري ومحمد حسين شهريار وفريدون
توللي.. تحدثت لي عن بهجت تبريزي الذي صرخ: "سلاماً يا حيدر بابا"
والتي كتبها باللغة التركية وعن أحمد شاملو الذي كتب قصيدة النثر
الإيرانية، أدهشتني وهي تتحدث دون انقطاع عن قصائد شاملو
الميتافيزيقية، عن شاملو الذي كان يرتعش من خوفه من العوالم
المجهولة. كنت أشعر بيدن شاملو وهو يقشعر، شاملو الذي بكى الهواء
المضرب بالحزن ومنتف الحبال الفضية في مسبحة الجواهر، شاملو مزيج من
ريلكة وبرودسكي فالشعر حادثة وحادثة مسببها الزمان والمكان. ولكن
شكلها يتحقق في اللغة...

كان شاملو يسمي قصيدة النثر بالشعر الأبيض وشعر لا يريد أن يظهر على شاكلة الشعر، قصيدة النثر هي رقص لا يحتاج إلى إيقاع، موسيقى حسية وشعر أبيض، فكر متمرد، كما كتبتة فروع فرخزاد، كما كتبتة وهي تبحث عما خفي فيها وعن البحر الذي لا يمكنها أن تخفيه في هذا الطوفان المخيف..

مهدي إخوان شاعر اليأس والجو الكئيب ووالأبواب الموصدة والرووس في الباقات والأيدي المخفية وحيث الأشجار هياكل من بلور مرصوف، والأرض ميتة القلب والسما، واطئ سقفاها...

ومن ثم سُهراب سبهري السريالي الذي مزج شعره بالعرفان والدروشة وسبهري الذي خشي أن تأتوا على رؤوس أصابعكم، كي لا تتفطر آنية وحدته الحزفية الرقيقة...

جلسنا طويلا ونحن نحدق بالوجوه والأشجار والشوارع، جلسنا طويلا ونحن ننظر إلى الطيور البيض وهي تحلق في السماء المكشوفة، جلسنا طويلا ونحن نتذكر الشعراء الذين قتلتهم الأيدي الخشنة والوجوه المتصلبة في ليل طهران البهيم.

*

في آخره الليل سرنا في الميدان الكبير وقد وجدناه حيا ونابضا منذ عصر القاجارين، ضرب وجوهنا الهواء البارد ولسعتنا رطوبة قارسة منعشة إيانا بالنبيذ الذي أخفيناه في حقيبة صغيرة، والسجائر والدفء الفواح، كان الوقت متأخراً ليلاً، وكان الهواء يشتد في الضاحية كلها، وراحت أشجار السرو الطويلة المدببة تصفر في الأعلى، والإسفلت يتجلد على الشارع، بينما أخذت القناديل ترتجف وهي تلقي بنورها على البنايات المتقابلة.

-II-

طهران من الجامع إلى السوق

(أتكلم من عمق الليل، خارج عمق الظلام، وخارج عمق ليل أتكلم.
إذا أنت جئت إلى بيتي، صديقي.. إجلب لي مصباحا ونافذة أنظر
من خلالها الحشد في الممر السعيد).
الشاعرة فروغ فرخ زاد

*

طهران هي مدينة التركواز واللازورد المبهج في تكائفه، والمشرق في صفائه، طهران المحاطة بنطاق الجبال العظيمة والجميلة، مدينة المناثر وقبب المساجد المذهبة، أو القبب الجميلة المصنوعة من المينا الزرقاء، المدينة التي تضوع منها روائح أشجار البرتقال المزهرة، مدينة الفضاء الواسع وديكور الورود في الربيع، الديكور العظيم الذي يغطي أرضها.. وساحاتها وشوارعها وأرصفتهما الواسعة.

ديكور عظيم من أجسام الورود كما لو كنت في قصر من قصور ألف ليلة وليلة: شيء ساحر وحلمي وأنت تعيش كل لحظة مجد تألق الألوان المختلفة التي تغطي السهوب غير المتناهية، أو واحة الأزهار البيض النابتة على مقربة من الجبل، أو موجة الأشجار والسلام

الفردوسي في الساعات الأولى من الصباح منتشية في الضياء الباهر،
ومرتخية تحت أشعة الشمس المشرقة.

*

في مساء طهران الأبيض لسعنا البرد لسعات صغيرة، وغرق كل ما
حولنا بغبش ضبابي كثيف، كنا نسير غير أننا لم نعد نميز سوى جزء
صغير من الميدان، ومن هذه الغشاوة المهتزة انبثقت بقع مصابيح خافتة
جداً، وراحت تسبح أضواؤها. أما في الأعلى، في الفراغ المدخن، فبدأ
الجزء الأعلى من صورة كبيرة قائمة منصوبة في الساحة.

*

في ساحة آزادي التي تبلغ حوالي خمسة هكتارات وهي أكبر ساحة
في العالم... وفي وقت متأخر من المساء وصلت باصات بيض كبيرة كان
يستقلها السياح الأميركيين والإنجليز... ثم انساب الضباب الكثيف على
امتداد العشب والساحة المقفرة، وتقدمت عربات الزبالين في الساحة
لتصل إلى النصب، وتعالّت أصوات الأطفال وصراخهم النحيف في الليل
البارد البهيم. ومن النوافذ المفتوحة للسيارات التي كانت تسير بهدوء
في الساحة أطلت الوجوه التي تترقبنا، أما معصومة فقد كانت تنظر إلى
هذه العربات وإلى الرصيف المبلل الذي يلمع تحت الأنوار وإلى حشد
المسافرين غير الكبير الذي هبط من الباص وإلى الساحة الفخمة التي
لفها ظلام رمادي كثيف كأنه مشهد جديد لم يحدث منذ سنوات، فلم
تكن سياسات الحكومة تسمح للسياح الأجانب القدوم إلى طهران.

*

سياسة الإصلاح الجديدة سمحت للسياح الأميركيين القدوم إلى

طهران.. تحت نظرات المحافظين المعادية.. وفي الساحة الكبيرة التي وقفت الباصات عندها كانت هنالك لوحة كبيرة مرفوعة إلى الأعلى مكتوب عليها (تسقط أميركا)...

"شعارات .." البلد كلها شعارات... قال حميد سهرابي الصحفي الشاب الذي رافقنا ذلك اليوم وهو يلف رقبته بياقة الجاكتة: - "كم أكره هذه الشعارات .. وهذه الصور الكبيرة أفضل عليها دعايات بيبسي كولا..". كان نحيلًا جدًا، متوترًا إلى حد ما، له وجه غريب شبيه بطائر اللقلق، وعيناه حالمتان محتشدتان بالرؤى، وفي المساء يلفه قلق ساحر، حاد، وماكر.

"الجو بارد " قلت لهم.

" مساءً يعم الضباب لكنه سيتحسن في الصباح كثيرا"

صعدنا الدرجات المرمرية الملساء إلى الساحة المجاورة، وهناك شممنا على الفور رائحة الربيع اللاذعة، والحجر المبلل، والماء الذي يقطر بهدوء، وعذوبة... مشينا ببطء كبير ذلك الوقت على الأرصفة الصغيرة والممرات الضيقة التي تتخلل العشب ننظر إلى الرطوبة المظلمة، إلى الضباب الأبيض الذي هبط تلك الساعة وكأنه قادم من جبال البورز ليخفي مشهد المدينة ويقدم بدلا عنه مشهدا جميلا آخر، ليقدم لنا مشهدا غريبا لم نتعود عليه في الربيع، وتتخلل المدينة ويبرزها خلف غلالة من بياض بناسها، بأنوار مصابيحها، بواجهات فنادقها، وبأسبجة قصورها، بمصابيح جسورها، بحجر قنواتها، وبكل حياتها المسائية التي تبدو وكأنها مخنوقة بغشاوة سميكة ومنتشرة في كل مكان، ويكاد الضوء لا ينفذ منها.

خف إلينا نادل المطعم وفتح الباب لنا، وساعدنا بمهارة وحذر عجول على إيجاد مكان لجلوسنا، فاتخذنا مقاعد جلدية باردة في صالة مضاءة إضاءة خافتة، وبمصباحين كبيرين ومعتمين، أشعلنا سجائرتنا وأخذنا ندخن باسترخاء كامل، بينما طلبت معصومة النارجيلة التي حملها النادل ووضعها على الطاولة، كنا ننظر من الزجاج إلى الشارع، فراحت بعض قطرات الضباب تترقق على الزجاج ثم تنزلق إلى الأسفل.

*

من هذا الزجاج كنا ننظر إلى طهران وهي تتجمع مثل قبضة الكف على نفسها .

طهران التي ذكرها الاصطخري في المسالك والممالك في القرن العاشر بوصفها قرية قبل أن يعمرها الصفويون، طهران العظمى التي شيدها التدمير المريع للري على يد المنغوليين فهاجر الناس إليها ليؤسسوا اليوم متربول الإسلام المنشق والمعارض للإسلام الرسمي، طهران التاريخ والتي كانت تعني المزارع الكثيفة والشجر الغض والغظارة الرائعة للنبات وهو يؤشر نمو مدينة عصرية بشكل تدريجي من القرية التي كانت مشهورة بشمارها الرفيعة وحدثاتها الجميلة إلى العاصمة العظيمة، فالشاه طهماسب من سلالة الصفويين اختار طهران كمركز إداري لمملكته فأدّى هذا الأمر إلى بناء العديد من البنايات الحكومية الكبيرة والقلاع والأبواب، وفي عصر سلالة الزند تحولت البلدة الصغيرة إلى مدينة عسكرية على يد أول ملوك القاجار آغا محمد خان الذي سمى طهران عاصمة للبلاد في العام ١٧٨٩ .

وها هي طهران التي كانت الحصن العظيم الذي بناه شاه فاتح علي

ملك القاجاريين، أصبحت أبوابا ومساجد في زمن الشاه ناصر الدين، أصبحت ساحة طويخانه الكبيرة والبنابات العسكرية التي بقيت آثارها حتى الآن...وها هي طهران اليوم... الحياة الغافية والمرتحة في هدوء الصيف ومساكنه، ويزيد من برودة الصيف النسمات الهوائية الهابة من جبال متدما فاند، ومن المتنزهات العديدة والحدائق الكبيرة حيث تتفتح الزهور على شكل صفوف على مدار العام، وخلف الشوارع الواسعة هناك صفوف الأشجار في الدروب أو في الشوارع الصغيرة، والماء الذي ينزل من المدينة العليا على طول البالوعات العميقة والعريضة التي تبدو مثل الأنهار الصغيرة أثناء الربيع...

وفي الصباح هناك دزينة من المقاهي الصغيرة بسقوف الحارصين التي تعشش بين الغابات بانتظارنا. وقد فضلنا الراحة القديمة الطراز، وهي الجلوس على الأرائك المنخفضة التي تغطت بالسجاد القديم، لنأكل الكباب بالسماق ونشرب الشاي من السماور الفارسي والإستكان.

*

في الأسواق الفارسية الكائنة في جنوب طهران، شممنا أول دخولنا رائحة التوابل الحادة ورائحة جلود الغنم، وسمعنا الضربة الصوف لفتح السجادة من الأكوام العالية كما لو كنت تفتح مخطوطة، رأينا الوجوه الفارسية في الدكاكين، والعرب أيضا، والبلوش، والمنغوليين، رأينا إيران المختلطة التي لا تريد أن تسمع كلمة عن اختلاطها، رأينا العمائم المهذبة على الرؤوس، أو القبعات الجلدية، أو الطاقيات الشبيهة بتلك التي كان يرتديها تولستوي... في سوق دروزة ميلي، بواجهته الجميلة المصنوعة من الطابوق البارز، والمزينة بالبلاط الرنخي، والذي بناه الشاه في العشرينيات..

السوق في طهران هو النقطة المركزية من البلدة، ليس للتجارة فقط إنما للعلاقات الاجتماعية للزواج والسياسة، وهو مفتوح على الدوام، ويستقبل المهرجانات الدينية أيضاً، وأعلى نشاطاته منتصف النهار بطبيعة الأمر، أنت تسمع الصباح، والمساومات، والطلبات، وصراخ الحمالين، والنساء، والرجال القادمين من كل مكان، وعلى الجانبين كل ما تحب: السجاد، المجوهرات، الجلود، الحرائر، النحاس، الذهب... الدكاكين تبدأ من ميدان سبزه على طول عشرة كيلومترات، وبأبواب متعددة يحرسها رجال الأمن، ومستودع كبير في فناء مستطيل مفتوح، وهناك النافورات والبركات الصغيرة التي تخفف حرارة الصيف الجافة، وبعض التجار يرش الأرضية فتصبح زلقة، وأنت تسير عليك أن تتفادى الحمالين المحملين بأكوام عالية والذين يشقون طريقهم بسرعة بين الحشود، وقد ذكروني بالحمالين الفرس في أسواق بغداد.

-III-

من الفردوسي إلى سروش

طهران خان الفردوسي وشاهنامته، أبطال أسطوريون عنيفو الطباع، ملوك ثابتو الكلمة، وشعب متدين مقهور قادم من الأرياف كان يتحمل التضحيات بلا انقطاع، وهو اليوم يحكم المدينة بعنف مقدس.. شيء متوارث على الدوام وأنت تراه يتقدم من جيل إلى جيل، شيء ثابت كما تراه في المتحف الآثاري الذي صممه المهندس الفرنسي أندريه غودار، المصنوعات اليدوية القديمة، المجاميع الجميلة من الزجاجيات القديمة والمعاصرة، متحف السجاد الذي لا نظير له في العالم، قصر سعد آباد، مساكن الشاه السابق، القصور البيضاء والخضراء، متحف المجوهرات.. الذي صعدنا بمجموعة الالماس، والياقوت، والزمردات والأثاث المغطى بحجر كريم، والذي جعل السياح الإنكليز يسخرون من جواهر تاج إنجلترا... كل شيء مبهر في هذا المكان الفذ: جوهرة الربيع التي تظهر على العشب البري الغض، عيون النساء الجميلة والحاذقة، الشجر المعمر الذي بصمد في العراء، الفضاء الكبير الذي يسمح بتداول الهواء، البرد الذي لا يقبل الخلط.

*

ضباب طهران الذي يلف مرتفعات البورز ومت دما فاند يلفنا أيضا، فسهرنا ذلك اليوم حتى الصباح... وقبل ذهابنا إلى الفندق غنا في منزل حميد سهرابي حتى الظهيرة... ثم استيقظنا متلهفين لرؤية الآثار القديمة. خرجنا من منزله على عجل... وفي الطريق توقفنا لنشتري علبه سجائر من رجل يرتدي طاقية غريبة ويجلس أمام محطة البنزين، بين مصفّف الشعر ودكان البقال... كانت معصومة أصفي تعرض علينا اكتشاف أسرار طهران عبر رؤية متاحفها القديمة، اكتشاف الأسرار الغامضة للفن... وحميد سهرابي عرض علينا الصعود في العربات التي تجرها الخيول ووسائل النقل القديمة لنجعل من أنفسنا على تماس كامل مع المجتمع... وبدلا من هذا وذاك ذهبنا إلى سوق تاجرش... وغبنا في ممراته ساعة، ثم زرنا المتاحف الرائعة، ذهبنا إلى مرشد جعفر بور، تسلقنا مرتفعات توشال، لعبنا النرد والتخت قرب الكهف الغريب، جلسنا في مجلس للاحتفال بعيد ميلاد حضرت فاطمة، ذهبنا إلى مسبح في الهواء الطلق وقد عامت معصومة بملابسها، جلسنا في متنزه شهر جنوب طهران.

*

في المساء أخذنا الحافلة واجتزنا صحراء قاشان الرملية المترامية، كانت الشوارع هادئة ورائعة، وكان الجو لطيفا، والهواء المنعش ضرب وجوهنا وعبث بشعرنا وهذا البرد اللذيذ الذي أنعشنا منحنا قوة جديدة لتسلق التلال... وبعد ساعات عدنا نلهث لدخول السوق في كرفانساري، فشهدنا هناك الموقع القديم الذي يشبه رجلا مقرفصا في الساحة، مشينا سريعا في ممرات السوق الضيقة، جلسنا تحت القباب المنخفضة، تسلقنا الأشجار العملاقة التي تنتشر بين البيوت، تجوّلنا في الظلّ البارد وعطر

مئات أشجار السرو القديمة بحوطنا، ومن المطعم الكائن في آخره السوق على مقربة من الجامع اصطحبنا شاب عراقي التقينا به صدفة إلى منزل جميل من عهد الصفويين، وقد تهنا في أفنيته، وغرفته، ونوافذ زجاجة الملون...

*

لهب هائل في مدفأة مشتعلة في ركن المنزل، مقاعد ذات اذرع مكسوة بالساتان الأبيض مع أريكة واسعة، امرأة جميلة ترتدي ملابس راقية تعيد إلى الذاكرة ملابس الأميرات القاجاريات تتحدث بإنكليزية غريبة، واضحة الحروف وبالغة الهشاشة في ربط المقاطع.

تعرفنا على شاب من تلامذة عبد الكريم سروش، المفكر الإيراني صاحب أكبر ثورة في تجديد الخطاب الإسلامي، وتحدثنا عن الحركات الفكرية والثقافية في العالم، عن تجديد الإسلام وملاءمته للتحويلات الاجتماعية والثقافية المعاصرة، عن أفكار عبد الكريم سروش المذهلة وحصوله على جائزة أرازموس الكبيرة في الغرب مع فاطمة المرينسي وصادق جلال العظم، عن كتب على شريعتي واختلاف وجهات نظره في تجديد وإصلاح الإسلام، عن تقاطع أفكاره مع أفكار داريوش شايفان الذي يريد تجديد الفكر الإسلامي عبر تطويره مع الحداثة الغربية، عن محمد أركون وتجديده الميثادولوجي في قراءة الظاهرة الإسلامية، عن هابرماس الذي أعجب بسروش وألقى محاضرة رائعة في جامعة طهران، وحدثنا الشاب عن مشروعه في إصدار مجلة فكرية وطلب مني مقالات لترجمتها ونشرها، واتفقنا للقاء في اليوم التالي في بهو الفندق.

*

من النافذة الطويلة للقصر المهيّب، النافذة المغطاة بستائر المسلمين والدانتيل، من السجاد الفخم الذي يفرش البلاط المرمري، من الوسائد على المتكثات والآرائك، من حياة الأبهة والترف الذي لا يُحد يأتي البحث عن معنى جديد في حياة هؤلاء الناس... قسوة سلاطينهم، عنفهم، قوتهم، مبالغتهم، إفراطهم، جرأتهم، حياتهم وأفكارهم القصوى.. الحياة إما قاتل أو مقتول.. إما أسود أو أبيض.. وهكذا كنت أنظر بمشاعر متناقضة إلى هذا الشاب المعجب بسروش، والمتحمس شديد الحماس لفكرة أن يحقق عبر الإسلام المتحرر معجزة... أنا أيضا أعجبت بسروش.. أعجبت بأفكاره.. وقد أدركت على نحو كامل أن القطيعة مع حضارة شكلتنا وكونتنا بشكل جماعي أمر مستحيل، والعودة لأسس الشريعة القديمة أمر مستحيل أيضا.. ولم تعد أفكار شريعتي القريبة من أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة في محاولة جعل المصطلح الإسلامي للحكم متوائما مع الحياة المعاصرة أمرا ممكنا، إذن لم يكن هنالك سوى تجديد الإسلام من داخل الإسلام.. الثورة البروتستانية في الإسلام كما سمى هابرماس أفكار عبد الكريم سروش بحق.

*

سروش أحد أعظم المفكرين والفلاسفة الإسلاميين منذ ابن رشد، وموقعه في الثقافة الإسلامية شعبي من جهة وجدالي من جهة أخرى، لقد حاول ويقوة دمج مسارات الفلسفة الإسلامية مع فلسفة وعلم الاجتماع الغربيين، وقد لقبه الفلاسفة الغربيون بـ "لوثر الإسلام" وبارازموس الإسلام أيضا، وكانت صيحته وسط غضب واختلاط الثورة الدينية في إيران عالية، كانت صيحته الشجاعة هي مصالحة الإسلام مع الأفكار

الغربية الحديثة، ولاسيما الديمقراطية وحقوق الإنسان... فلسفة سرور
هي نصوص فذة ومختلطة بحقول متعددة في نسيج خطابي واحد، فكتبه
مثل صيدلية تجمع التاريخ مع الفلسفة مع العلوم مع تفسير القرآن مع
الشعر الفارسي.. وهو أول من جعل من الشعر واسطة وميثادولوجيا
في قراءة الظاهرات... شيء من الهرميونطيقية.. والإيمانية..
والواقعية.. والشعرية في نص واحد.

-IV-

فلاسفة، متصوفة، وشعراء

(أعترف بالبهجة الكبيرة صراحة، ويمثل هذه الغبطة العظيمة أيضا .
أنا مستعبد بحبك، وحر من كل عالم آخر، مثل طير الجنة، إن أفترق
عنك سأسقط في فخ الحياة، الحياة والمأساة الدنيوية أيضا .
كنت ملاكا، مستقرا في السماوات؛
وترميم العالم مهمة أوكلت لي... حوريات الجنة، البركات الباردة
والشجرة على أمل في الاتحاد مع بعضها، غير إنني تركت ذاكرتي
بسرعة شديدة).

من قصيدة غزل لحافظ شيرازي

*

من قاشان ذهبنا إلى أصفهان، المدينة الغربية على نهر زنده، في
الوسط هنالك نهر جفّ مع بضعة بركات ماء متروكة، وعلى الضفة رجال
يصيدون بشبكات الرمي التقليدية التي لم يعد يستخدمها أحد، إنها
أرض حكيمة لا تعد الناس بأشياء زائلة، إنما بآمال موضوعة في يد الله،
إنها الجمال الحقيقي على الأرض مثل الربيع والصباحات الرقراق
والأماسي الذهبية، والجلوس قرب الجامع على مصطبة تحت ظل الصيف

وليس هنالك سوى الإيمان الذي يطرد عن الإنسان رعب الموت... في الطريق متصوفة يسوحن على الأرض ويتوقفون أمام المشهد الأكثر بساطة والأكثر حماسة، ومن بين صياح المتجهدين باسم الله بانوراما تتخللها أشجار السرو، وأشجار الدلب، وخرير الماء، وغناء الشحرور، وصوت السمان، وشرابت الزنجبيل المثلجة والموضوعة بطاسات النحاس. في الظهيرة زرنا علامات المدينة التقليدية: السوق، الساحة، المساجد، القصور والجسور المشهورة المنقوسة على قاع النهر الجاف، ركضنا في الساحة العظيمة القريبة من القلعة.. شعرنا ما يشعر به المغامر وهو يواجه موجة شاهقة، أو ما يحسه متسلق الجبال وهو يتطلع إلى القمة الشامخة.. كنا نعيش نشوة الصعود والقفز والانحدار... تعرفنا هناك على ماه سلطان المطربة الشهيرة من زمن الشاه وقد تحولت إلى حاجة بعد الثورة.. كانت جالسة على الصوفا ترتدي وشاحا أبيض بشرائط صغيرة، وعيناها السوداوان هي الأكثر روعة متقدمة مثل جوهرتين محاطتين بالكحل، وبشرتها المتوردة تخبرنا بأنها وإن كبرت فإنها لم تفقد الاطلالة الشهوانية لجسدها ولا بريق عينيها الجميلتين. وفي البازار أكلنا الساهون، الحلوى التقليدية في إيران والتي كتب عنها آبادي في رواياته، وشرينا قريبا من المقبرة المياه العذبة من أحواض الموزائيك والفسيفساء والمرمر، وقد نام الرجال في الظل كما لو كانوا في كتاب من كتب غوينو أو شاردان قبل مئة عام.

*

في المساء ذهبنا إلى جلسة الرياضة الفارسية القديمة (الزورخانه) والتي تؤدي على صوت الموسيقى وحركات المرشد... وفي نهاية الفصل

المسرحي الباهر كان ركوع الرياضيين الذين يشبهون مصارعي
السوما.. وكان سجودهم ودعاؤهم وهم يجلسون على الأرض خاشعا، وفي
الخلفية كان ينتظم مشهد المتفرجين مثل متحف من الوجوه والبذلات
الشعبية تحت الأروقة المروسة للمبنى القديم، وجوه الرجال النحاسية
المتغضنة، ووجوه النساء الجميلات اللواتي يتحاورن غير مباليات، ثم
قدموا لنا الفستق واللوز القادم من جبال زاغروس طريا ومملحا ..

أصفهان هي آسيا الحقيقية المتكونة من النساء الملقعات اللواتي
يسحبن أقدامهن بهيئة لا مباالية ومن الرجال الذين يسيرون في
البازارات، ومن الدجاج الذي ينقر الحب في المزيلة، ومن البقرات التي
تبحث في العشب عما تبقى من قشور البطيخ.

*

واصلنا انحدارنا جنوبا، توجهنا نحو شيراز عاصمة الشعر الفارسي،
المدينة الشاعرية العظيمة التي ضمت قبر حافظ... وكان علينا أن نتبارك
بهذه المدينة المقدسة والتي يسميها القدماء مدينة الشعراء..

قالت معصومة آصفي: إنك لن تكون شاعرا أبدا.. إلا أن تتبارك
بها.. لن تكون شاعر إلا أن تقول لها:

ها نحن جنناك لنلامس سحرك وشِعرك وقبر حافظ
يقولون: لا يمكن لأحد أن يصبح شاعرا إلا أن يلامس مياهاها
العذبة، وهواءها البارد، ويداعب قباها ومآذنها وأبراجها. لا يمكن لأحد
أن يصبح شاعرا عظيما إلا أن يجلس في مقاهي أوصفتها، ويمسح وجهه
بجدران قبر شاعرها، وبصخرتها الكبيرة، وبأسوارها المهدمة، وأن يتسلق
تلالها وأبراجها، وأن يستريح تحت أفياء أشجارها...

من مكان بعيد كنا ننظر إلى فنادقها القديمة، وإلى أزقتها المتعرجة، وكنا نميل شيئا فشيئا على أسواقها ومساجدها، وهي تتراءى لنا شيئا فشيئا بقبابها ومآذنها، تتراءى لنا بأزقتها المتعرجة ومداخلها الضيقة ومياهها الرسخة وسكون مقابرها، سكون الماء، سكون الضوء الذي ينسل قويا من سماء صافية، سكون اللهب الذي يشع من نوافذها، من الضوء الأزرق، من البخور الذي يتصاعد من قبر شاعرها... قبر حافظ وهو يداعب وجه المدينة الأبيض المدور، يداعب عظام وجنتيها البارزتين... حديقة إiram، باب قرآن، جامع ناصر الملك، كل شيء هنا مصنوع من هندسة معمارية عظيمة ومن كرم دافئ.

*

وقفنا أمام قبر حافظ شيرازي منبهرين لا بشعره هذه المرة إنما بالأبهة العظيمة والروحانية لهندسة قبره: للحجارة المنحوتة مثل قبة، للقوس الذي يفتح مثل صعود الروح إلى أعلى، للأبعاد الأربعة التي تشكل انتصاب الأعمدة، للسقف الذي يلمع تحت الشمس وقد أبرزته الهندسة الباذخة، للملمح الرقيق لشعر الشيرازي والذي طبع حياته وقبره، وطبع المرمز الأبيض المبرقش، والخلفية الزرقاء بلون السماء والخضراء بلون التفاح، واللمعة الرقيقة التي تظهر بمرح خلف الأشجار. كان للهواء عذوبة ساحرة وكنت أشعر بالحياة وهي تغمرني وسط هذا المكان الحي والخصب، كنت أشعر بالجنائن الحقيقية للشعر غير المهدمة منذ مئات الأعوام، الحجارة التي يمكنها أن توقظ فينا شعرا وأفكارا فلسفية.. صعد أحد الحاضرين وأخذ يتلو علينا قصائد حافظ شيرازي من كتاب في يده، أخذ يتلو علينا قصائده الصوفية الغزلية بصوت عذب،

بصوت رخيم ومنغم. شعرت بفرح كبير، شعرت بالزهو والانطلاق، شي،
أقرب إلى الفرح الذي يحسه المتزلج على الجليد قبل النهاية الرائعة
للمنحدر الأبيض.

*

عدنا إلى شيراز لنزور مرة أخرى آثار بريسبوليس في التلال لقاء
تذكاري آخر: الخراب الكبير، مسيرة على طول جدران نقش رستم،
الريف البارز والمفصل بشكل مذهش لأثيوبيين ولبيين وعرب وأرمن
وثيران وأكباش وأسود وجمال. وعلى الحجارة المحفورة تقوس الحواجب،
الضفائر المصنوعة من صوف الخراف، التنورات ذات الطيات،
بريسبوليس مقعد الإمبراطورية الفارسية منذ ثلاثمئة عام قبل الميلاد،
الموسوعة البصرية للتاريخ القديم، يوم كامل مع حدائق نارجانستان،
مسجد ناصر الملك، مدرسة خان اللاهوتية، قبر حافظ وسعدي، وكيل
باب القرآن والسوق... لقد أذهلنا الفن الفارسي القديم والرائع، تسلقنا
جبال زاغروس الرائعة الهائلة ووصلنا بوشهر المدينة العربية القديمة،
تجولنا في كنيستها الإنجليزية السابقة، قمتنا بمنأخها الاستوائي الدافئ،
وهو أجمل بكثير من المرتفعات الوسطى المتربة الجافة؛ عشنا في الخليج
العربي من جهة فارس وهو الأكثر جمالا ثم عدنا إلى طهران بالطائرة.
في اليوم التالي حضرنا حفلة عرس أحد أبناء الأرسقراطية الطهرانية
القديمة... وصلنا قبل الغروب بقليل إلى منزل فخم شمال المدينة، الحدائق
الكبيرة مذهلة في تناسقها، وقد أزال النساء الأوشحة من الرؤوس
وارتدين الملابس الجميلة، صعدت فتاة جميلة إلى المنصة وغنت قصيدة
جلال الدين الرومي الشهيرة والتي تؤدي دوما في الأعراس:

(شربت النبيذ لوحده.. وأنا أرغب بالمرور عندك، نحن نقود السكارى إلى عرش.. فيظهر وجهك اللامع الملوكي... ويضيء اللهب مكاني... كل زاوية تضاء بنورك...).

قال حميد: إن المرأة الطهرانية كثيرة العاطفة، وهي رقيقة من المستحيل عليها أن تقاوم المحب أو تقاوم من يحبها... المرأة الطهرانية تبحث عن الرقة الهائلة عن المغازلة والإغراء والإثارة.

*

المرأة في إيران تتخبط بين عالمين عالم السياسة وعالم المجتمع، وتعيش صراعا ضاريا بين المتطلبات الدينية والحياة المعاصرة، بين التقاليد والانحراف عن التقاليد، والكثيرات منهن يصنعن نوعا من الموائمة الرائعة بين الاثنين.

جلسنا في الصالات الكبيرة وقد أنارتنا الشريات المصنوعة من الكرسنال، وكانت الموسيقى تحرض الناس على التوهج وبلوغ النشوة، ثم سرنا في الحدائق الجميلة بأشجارها الفخمة، سرنا في الحدائق الشاسعة المغمورة بضوء القمر، سرنا بالقرب من حوض سباحة كبير وزهريات تحوي أزهارا نادرة، تحدثنا عن كل شيء تقريبا، عن الشعر والسياسة والحرب والشعر والرواية والثقافة والجمال والحب والنساء، تحدثنا بأسلوب متوهج ورائع... تحركنا في الحدائق الغابية بشقة كبيرة وبمزاج رومانسي شفاف... إن الجمال التاريخي القديم.. الجمال الذي اعتقدنا فيما مضى بأننا فقدناه كان مقيما في هذه الصالات السحرية والحدائق الفاتنة الخرافية وكأنها إحدى حكايات الجن، وكانت النساء تنفتح في الليل مثل بتلات التوليب، وبعد أن جلسنا على الصوفا صعدت الموسيقى وبدأ

الرقص، بل استمر حتى منتصف الليل، وقبل الفجر قطع العريس
الكعكة ونشر والد العروس الأوراق النقدية على رؤوس الحاضرين، ثم
رافقنا العريس بعد منتصف الليل إلى منزله الجديد، وعلى صوت
الهورنات وصياح الصبايا أنهينا الحفل الجميل.

-V-

قلعة الموت وأسطورة الحشاشين

Alamut

(حشاشون.. مآثر مقتلهم على أيدي الولاة والسلاطين الذين يحملون
المصاحف المكية والبيارق، الصيف لا يغرد على صخرة سمرقند ولا يطرز
الوسائد التبريزية في الدواوين، هذا الحسن الصباح ينقش على الرقاع الجلد
حريته، بحر يتسلى بخرقته الطويلة الزرقاء عند أقدامه، ويحتضن
شجاعته، بحر يغرغر عند مسبحته ويلغ بلسانه مسبحة الفقيه حبة، حبة).

من كتاب الحشاشين

*

أهذه الخرائب القديمة هي الموت الأسطورية، قلعة الحسن الصباح
... حصن الحشاشين من الإسماعيلية النزارية، الفرقة التي دوخت
الحكومات أكثر من قرنين من الزمان، في هذا المكان ربما وقف شيخ
الجبل ينظر إلى جنته الصغيرة المعلقة في مكان ما، مكسوة باللون
الأخضر ومملوءة بالنساء الجميلات والخمر والحشيش، فإذا ما حان الوقت،
استدعى أحد أتباعه وأعطاه خنجراً، وقال له: أذهب لقتل فلان من

الوزراء أو الحكام أو القادة، فإذا ما فعلت ضمنت لك هذه الجنة للأبد.

تذكر كتب التاريخ أن ثلاثة من الطلاب الدارسين لدى الإمام موفق الدين النيسابوري، هم عمر الخيام ونظام الملك والحسن بن الصباح وكانوا يدرسون العلوم الدينية واللغة والهندسة والرياضيات والمنطق والعلوم واللغة الإغريقية والفلك على يديه، تعاقدوا على أن من يصل إلى الوزارة من بينهم سيساعد صديقيه الآخرين، وبعد أن صار نظام الملك وزيراً في بلاط الب شاه وطلب الخيام منه مساعدته في شؤونه الشعرية والعلمية، أما الحسن الصباح فقد حاول منافسة الوزير لدى السلطان ولكن المنافسة انتهت بخسومة شديدة وثم هرب الحسن وتحوّل بعد ذلك إلى قائد مشهور من قادة فرقة الحشاشين التي نظمت حملة من الاغتيالات السرية المنظمة للخصوم. وكان أحد ضحاياها الوزير نظام الملك نفسه، وكانت آخر كلماته عند اغتياله، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هي الشطر الرابع من رباعية الخيام التي يقول فيها: (جنت كالماء وكالريح أمضي).

*

في الأيام الأولى لم نستطع الوصول إلى قلعة الموت قلعة الحشاشين، قلعة الحسن الصباح والقتلة المقدسين في الإسلام... أما صديقنا علي الذي أراد أیصالنا هناك كان متعباً جداً وعيناه ناعستان بفعل الإرهاق والألم، كائن هستيري يقف عند القلعة، مؤمن وعيناه مفعمتان بالأسرار، ووجهه يشع كأنما من أعماق كهف بعيد، عيناه الغامضتان تذكرنا بعينين أسطورتين مليئتين بالأسرار. في اليوم التالي ومنذ الفجر حزننا أمتعنا على ظهورنا وعلى خطى ماركو بولو الذي زار

القلعة في القرن الرابع عشر الميلادي صعدنا الجبل مع البغال التي تحمل الأمتعة وجليكانات الماء، وقفنا أمام القلعة نبحت عن جنائنها الأسطورية ومكتباتها العامة، قالت معصومة آصفي... أسطورة الحشاشين هي واحدة من أكثر فصول التاريخ غرابة في العصر الإسلامي الوسيط، ولم يكن أحد من الواقفين هناك يؤيد الأساطير الغربية أو الإسلامية عن تكونها ونشأتها وأساليبها السياسية...

تقع قلعة الموت بين التلال القاحلة جنوب بحر الخزر قرب قزوين، وتبعد أكثر من مائة من الكيلومترات عن طهران شمال إيران المعاصرة، ولها نظام ري غريب جدا، فقد شيدت القلعة بارتفاع ألفين ومئة متر أعلى جبال البورز، على مضيق حافته الحادة على قمة صخرة عالية في قلب الجبال وتسيطر على وادي مرفق طوله خمسة وعشرين كيلومتر طولا، في طريق يضيق ويلتف بصورة مخيفة، مقتربا من نهر الموت، وكان علينا أن نتدلى على المنحدرات الشاهقة، ولذا فإن الصعود إليها كان شاقا جدا، فهناك من جهة طريق واحد يقود إلى القلعة مما جعل فتحها أوان ذاك شاقا، وهنالك وعورة الطريق الحجري الذي يصعب اجتيازه بسبب التخريب الذي أحدثته حملة هولاكو في القرن الثالث عشر، كما أن الزلزال قد أتلف ما تبقى منها...

*

بعد أيام توجهنا إلى نيسابور... تغدينا في مطعم شعبي صغير، ثم توجهنا إلى مقبرة المدينة لزيارة قبر الشاعر عمر الخيام... قالت معصومة آصفي لن تكون سعيدا في الحياة وفي الحب والشعر دون أن تزور قبر مولانا عمر

فوقفنا خاشعين على القبر الذي يصعد متلويًا إلى الأعلى مصنوعاً من المرمر الأبيض والمينا الزرقاء المرسومة على شكل أوراق شجر، وطبقاً للخواجة النظامي السمرقندي الذي كان تلميذاً للخيام وفي كتابه (جهار مقالة) الذي أخذ منه فيتزجيرالد، أن عمر الخيام قال مرة أن قبره سيكون في مكان تهب عليه النسائم الشمالية وينتشر فوقه الورد والزهر ووكأن النظامي يستغرب ما قاله الخيام ومرت سنوات طويلة بعد أن سمع عن موت الخيام فعزم على زيارة قبره في نيسابور بعد ثلاثة عشر عاماً من موته وفوجد قبره إلى جانب سور حديقة مهجورة وقد تدلت أغصان الأشجار فوق القبر ونثرت عليه من ثمارها وأزهارها حتى غطت أحجاره.

وها نحن واقفين أمام القبر الذي تحوم فوقه أسراب الطيور وتلقي بذروقتها فوق رؤوسنا، إنه فال الخير في النساء وفي الشعر، فمن تذوق عليه الطيور أمام قبر مولانا عمر، فإنه إما سيصيب قصيدة جميلة أو يحب امرأة جميلة... هكذا يقول الإيرانيون.

*

في الطريق شاهدنا الأبراج الزرادشتية الصامتة في يزد، جسور أصفهان والهندسة العظيمة للجامع الإمام، وفي منتصف الطريق بين مشهد وكرمان، كان الفضاء مفتوحاً، والحافلة تفرقع على الطريق الخرب، فتوقفنا تحت شجرة جوز وشجرة توت، وكانت السماء بلون اللبن، ثم صعدنا إلى تل كان يخفي وراءه معبد نار زرادشتي قديم يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وقد رافقنا أطفال قدموا من القرية المجاورة، طفلة صغيرة تضع خشخاشاً برتقالياً في شعرها جلست إلى جانبي بابتسامة تعصر

القلب، وكنا ننظر -أنا وإياها- على طول الطريق أشجار الفستق المشمرة، والنساء القادمات من السوق وشاحنة طماطة مقلوبة على الطريق... ثم شربنا الشاي من السماور وأكلنا الفاكهة المجففة.

*

كل شيء في طهران منفتح على شكل لا نهائي وغير محدود، الشوارع الواسعة والكبيرة، الأشجار الضخمة، المنازل المتسعة والتي لا حدود لها، الثراء الفاحش، والفقر المريع... وما يميزها أيضا هدوها العظيم، والصبر والطاقة التي جعلتها قادرة على امتلاك الحياة، بل جعلتها قادرة على تجاوز العقبات والانتصار عليها... طهران تمر بمرحلة خطيرة، متذبذبة، بين تقليدها الجامد وبين تحولاتها المعاصرة، الحياة القديمة وجوهرها والحياة المعاصرة ومخاطرها، امرأة حائرة تسير خفيفة في الربيع النامي المزدهر، تستمع إلى أصوات جديدة، وإلى أنفاس بهيجة جديدة، الثقافة في كل مكان والكتب في كل مكان، والقراءة في كل مكان أيضا، في الباص، في الحدائق الكبيرة، في المنازل، وفي باحات المساجد... ولكنها لا تجد طريقها، هناك من يدعو إلى الإسلام.. وهناك من يدعو إلى تركه، هناك من يدعو إلى الغرب، وهناك من يخشاه... طهران عالمان متناقضان... عالم من الخرافات والاختلاقات والأساطير، وشعب يعذبه عالم قديم بعفاريته الخبيثة وأعاصيره، عالم يدير ظهره للحاضر ضائعاً في زمن قديم، وعالم معاصر.. منذور للحياة وللمتع الكبيرة، وللملذات الحسية ومنذور للجنس والحب والجمال، وكلا العالمين غير المتصالحين يؤمن بطرق غير مرئية، وحياة روحية قرمزية لا يناونها، ويعرف أمام الشدائد كيف يبتسم.

كتاب الحشاشين مقاطع من قصيدة طويلة

الجزء I القتلة المقدسون في نيسابور

I

دعه يمر في الطريق على الطوائف، يحرق عشب الوزراء ويهتك
المحارم، وفي الليل يدخل الحشيش مع أتباعه الساعين إليه بدروعهم
وحللمهم وأزارارهم. في الليل يرتدي خفّه، و يدهسُ به في الصباح غضارة
العشب، وعندما يرقص في ديوانه بين النساء يسفح على شفّتيه نداوة
الليل.

II

دعه يمر

دائرا على نقطة الذبح، دائرا حولها، على يمينها ويسارها، دائرا
حولها على شرقها وغربها، دائرا حولها وهو يحمل درعه ورتاجه، كتابه
وقناعه، صندله وجرابه.

دائرا حولها وهو يرقب في نيسابور هوداج النساء، دائرا حولها وهو
يرقب قوافلها التي عبرت الطريق، وهو يرقب محلها الذي تبعته خيول
السلابة البدو إلى الثغور.

III

دعه يمر

ليرد فضائل الصيارفة بالأيدي المبقعة التي تحمل الدنانير
النيسابورية وملابس النساء، لم تكن فلاسفة ولا فقهاء ولا متكلمين ولا
ظاهرين ولا شيعة ولا سنة، كنا أمراء دون دواوين، دون حلة مزركشة
طرزت الجواري حواشيها بالديباج العباسي القديم وختم العبيد أزوارها
بدم الغروب.

IV

دعه ينام

هذا الحسن الصباح ما نام عند غدرانهم وجنائنهم، ما نام في
منازلهم أو في شوارعهم، ما نام في جحورهم وثغورهم، ما نام في
مرايطهم ولا في ثكناتهم.

دعه يرد على الذين ذبحوا النزارية في قزوين وأصفهان، فعيناه ما
غفتا في أسرة النساء المغوليات، ولا عند الجواري اللواتي بعشن
الهرطقة من الشمال.

دعه يدخن الحشيشة، ويطارد الأحلام، ويدبح بسيوفه المصلته رقاب
المرابطين على الثغور.

دعه يسرح بالزيت شعره ويسفع عند ماء الميضأة دم النبيذ.
دعه يسرح على السيف يديه، ودم المذبوح على ورق السنط، وفي
الليل يسرح عمامة الفقيه.

دعه يسرح قدميه ووجهه الأصهب الذي يلصف مثل دينار، يسرح
بحره وهو يشم رائحة الفتنة بيضاء على رخام المصلى، وهو يسدل شمسه
مثل سيف على رقاب الذين سجدوا فوق بلاط المحارب.

VI

دعه يمر
دعه يشم أبخرة الحشيش في ديوانه.
هذا أميركم لن يقتل السلاجقة هناك، ولا يبعث إليهم برجاله، هذا
أميركم لن يذبح المرتدين بيديه، لكنه سيبعث إليهم بأساطيره. هذا
أميركم يشم أبخرة الحشيشية التي تصعد ببطء من الآنية الفضية، وفي
المدى يرتعد الصليبيون من بريق الحناجر في حدائق الجنة الأرضية.
أميركم هناك ينظر الذين بايعوه، ويمزق ثوبه بين أيديه خرقا.

VII

هذا أميركم ... ملك الحشاشين هناك
بيديه المتوحشتين اللتين تلهثان كان يذبح حراس الثغور.
يصنع من جلودهم نعله. ويلطخ ثوب العاهرة المقدس في جامع قم
بدم فائر.

VIII

ما غفا الحسن الصباح عند النافورة التي لا تسبل أجفانها، ولا
تجف، ما بكى أمام أمراء الطوائف ولا غفر حكمتهم في الكتاب.
ما بكى شيخ الجبل أمام الذين ماتوا غيلة وتلاههم الأتباع عند حقول
السنط للتراب، ما رجفت يده أمام الذين ماتوا عندما غفت عيونهم عند
سفع خنجره، وعندما عسكرت حقول الأتباع دائرة بالإبل عند الغروب
في الجبال.

IX

دعه يجلس على محمل مزركش ترفعه أيدي الأتباع الجافة مثل
مصباح، دعه يذهب إلى أعدائه بخنجر واحد، دعه يذهب دائراً ظهره إلى
شمس الصباح، ويديه سيذبح الذين قردوا، ويلطخ ملابسهم بماء
الزعفران.

X

هذا أميركم قزم يجلس في ظلال سجفة، يمسك بين يديه أميرة
شيرازية متفتحة، أميرة مصنوعة من شعاع قمر أو من قطرة ندى.
هذا أميركم أورفية متفتحة، يطلق أجنحته في الهواء ويصعد إلى
السماء مثل غمامة من عطر.

XI

حشاشون.. مآثر مقتلهم على أيدي الولاة والسلطين الذين يحملون

المصاحف المكية والبيارق، الصيف لا يغرد على صخرة سمرقند ولا يطرز
الوسائد التبريزية في الدواوين، هذا الحسن الصباح ينقش على الرقاع
الجلد حريره، بحر يتسلى بخرقته الطويلة الزرقاء عند أقدامه، ويحتضن
شجاعته، بحر يفرغر عند مسبحته ويلغ بلسانه مسبحة الفقيه حبة، حبة.

XII

في النهار هوداج النساء تبرك في الظل وتصفي إلى بلبل
الحشاشين، هوداج النساء تصعد مع مطلق الصباح وتلتقي رغبة الزبد
العالية.

XIII

دعه يجلس بوجهه الأصهب، يحبر بريشته الطويلة مخطوطة الأسرار.
نبوءة تشع من روحه، أبخرة تشع وترتفع من وجنتيه، ومن الذين
صلوا عند الفاكهة الهابطة من الجنة
دعه يجلس بوجهه الأصهب ويرعى خرافا مديرين على الذبح.

XIV

نحن الذين قرضتنا أسنان القضاة.
مرت السنوات والعواصف انقرضت. انصرف العالم عنا. قلبنا لم
ينته إليه أحد. ولم يعرف أحد كم كنا نحب المعرفة.
نحن الذين قرضتنا أسنان القضاة وجوهنا غائبة الفرحة، كنا متغيرين
في كل شيء وأوفياء لسيفونا.

XV

نحن لم نعرف الإماء ولا الجواري ولا الخصيان الخرس السود الذين يتمددون عند باب الحرملك في شيراز أو عند باب السلامك في قصور بغداد.

نحن لم نعرف التجار الفرس في اصفهان، وهم بلحاهم المحناة وخلفهم يحمل العبيد المظلات التي تقيهم لفحة الشمس. كنا فقراء وديعين وعلى مقربة منا تنط حميرنا الصغيرة في الساحة.

XVI

ها هم الغرباء.. الجائعون.. يغيرون على البساتين ويسرقون البطيخ، غاراتهم العنيفة تخطف الهواء من البساتين. لا كتاب مثل جوهرة ضائعة، لا رئيس يتحمل التضحية، وفي يد خادمته جوهرة وخنزير برّي. من يبقى حتى الظهيرة حاذقاً في الخمارة، شيء يكت في قلبه ويعلق مثل شجرة صمغية في الهواء، ورجل مجهول بعمامته وكتابه وقرطاسه يدخل من عراء البرد إلى الدواوين.

XVII

قال الخليفة المغدور هذه الفلزات لا تقبل الخلط، ولا يمكن للخيميائي أن يصنع الذهب. قال الخليفة للرعية الذين يركعون عند قدميه: هذه كذبة المنجمين تعزف في النهار عفاريته وأعاصيرها، وهذه كذبتكم، بينما الحسن الصباح يرقد هناك يقرأ كتاب الفاطميين ويدير ظهره ضائعاً بين أيدي الولاة المتعاقبين على البصرة.

XVIII

قالوا لا مناص من الموت ومن الركض على البحر، قالوا لا مناص من الطيران في الهواء، وهذه الفكرة الشيطانية لا تأتي من طرق مرئية ولا تعرف قياس الزمن، هذه الفكرة تأتي بفضل جسارة قرمزية، وشهوة خضراء.

XIX

اسماعيليون لا يناؤنونكم، ولا يعرفون كيف يتسمون لكم. فكرهم نحلة تغادر البستان من أجل فاكهة اسودت سلفاً، نساؤكم تساندكم دون أن تخونكم. نساؤكم بين أيديهم يحلبن أعضاءهم ويرتمين على أسرتهن، أولادكم عبيدهن، وشيوخكم أسراهن، وهم يعبرون بحر الخزر إلى الرجال المتجمدين في الثغور.

XX

إسماعيليون لا يناؤنونكم ولا يساندونكم ولا يعرفونكم ولا يغارون منكم، إنهم هناك على العشبة الندية في بساتين الجبل، وابن سينا يضع الدوارق على مقربة من عمر الخيام ويكي على فكرة منتحرة. نحن الحشاشين، وجوهنا لها ملامح رهينة ضائعة.

XXI

من له.. وما تلا جبينه الأبيض عند خف الأمراء الجالسين في القصور، ما ركع في ساحاتهم على التراب، ولا في مساجدهم على

السجاجيد، ما ركع بين أيديهم التي ترجف في خراسان، ما ركع عند خفهم وهم يطنون السجاد المفروش في الدواوين، ما ركع في محاريبهم، ولا في مراحيضهم ولا في سررهم ولا في جنائنهم.
هذا أميركم طار على جواد مسروق وسابق في نيسابور أجنحة الرياح.

الجزء II

زهور سود للتقدمة أو موت نظام الملك

I

هذا سيف الشيعة بقبضته الفخمة وهو يخرق لبدة القاضي.
قال: "الباطن أمام الظاهر...".
لقد تجاوزت النهر مثل جسر، ونشرت الليل شبكة لتصطاد به حراس القصور.

II

لا حق ولا عدل في الميزان، هذا الفقيه الذي يمد يده إلى الخصور،
يحمل شاهدة قبره ويدخل خمارة أخرى تقع على مقربة من السوق.
فاطيون يصدون هجمة أخرى قادمة من الشمال.
يجوز ما لا يجوز في شريعته، والكرى لا يأخذ الشملين ويسرع
بهم إلى النوم.
الكرى يأخذهم -عندما يقبض القضاة والفقهاء على أعمدة الرخام
في المصلى - إلى خمارة جديدة.

III

في نيسابور يومٌ صافٍ جديد، يومٌ يحفرُ دهليزَه المضيء في سواد الليل، يومٌ يعلو الوجوه لتهليل الظهيرة.

IV

قال الظاهر أمام الباطن.
الشراء كان مهجوراً، الشجر لا يعرف غصنه، والكوسجُ كان بعيداً
جدا عن سيوف الفاطميين، غير إن الإسماعيليين يعرفون بعضهم
البعض، يعرفون القوس والنصل الذي رمته سفن المحاربين على الشاطئ،
حين تقرّبت المراكبُ من جديد إلى الضفة، والقنطرة المقدسون في الإسلام
يسيرون محمومين وهم يتعثرون من السكر في الصباح.

V

الخنجر لا ينفذ في عمائم التزاريين السود ولا في دروع المغيرين في
المساء على الجبل، وفي الصباح يتجمع المصارعون على حلبة السوق في
سمرقند قرب دكاكين الصاغة ومحلات السراجين، يتناطحون برؤوسهم
الحليقة وبأيديهم الضخمة يلوون الحديد.

VI

الناس يتجمعون عند الحلبة ينظرون إليهم وهم يدورون على بعضهم
بسراريلهم العريضة المصنوعة من الحرير، ومن آذانهم يتدلى الحلق
النحاس، المصارعون يتلاوون بأذرعهم المقتولة مع الأحاش والتنانين،
وفي الخمارة يبكي الحشاشون على الإسماعيلية المغدورة.

VII

صبي السماء هبط على الأرض ليصنع للرجال جنة الحشيشة، صبي السماء يغري المصارعين في حلبة البازار لدخول النجوم، وفي صدره وشم مثل الثريا مشعا وقاسياً، ها هي أذرعهم معروضة في السوق، ها هي صدورهم العريضة حاملة مهاجرة من مدينة إلى مدينة، مهاجرة من شهرستان إلى الجنوب.

VIII

بعيداً عن قطاف الفلاحين الفرس في نيسابور وشيراز، بعيداً عن الأمراء العباسيين وصورهم التي يرفعها الأحباش على سيوفهم، بعيداً عن الطوائف الذين يصلون في المحارب، بعيداً عن التركمان والأكراد والجرامقة وهم يشمون رائحة الفتنة على الرخام، يحدث أن يلتقي هذا المساء بربه، ذراعاه مشغولتان طوال النهار بخرقه سوداء وعريشة هشة.

IX

النساء يتجمعن عند حلبة السوق يشتهين رائحة المصارعين المتوحشة، وعلى العضلات يقرأن تطاغن الأفكار.

X

قم وابك على وجهه.
على خنجره.. على يده التي لا تمتد إلا وهي مقطوعة من
الرسغ.. لشويه الذي لا يطير إلا وهو مزق.. هذا النهار على أجنحة الوسائد

الملقاة في الدواوين، والكؤوس لا تدار إلا مع غلمان نادرين، وجوار لا يخطئها الفقهاء ولا الملوك ولا الصائمون في المساجد.

XI

عمر الخيام طوال ليله يستندُ إلى الكلمات التي صنعت الحسن الصباح ونظام الملك... قال:

لا شيراز.. لا نيسابور.. لا سمرقند.. تحيي النهار لحظة يطير مع البلابل، أو عندما يشاء النهار، لحظة يحلق من شجرة إلى شجرة، من بحر إلى بحر، من بخارى إلى الشام، والفاطيون لهم صبغة أخرى تشبه لون الغيوم.

XII

نظام الملك يذهب إلى الأماكن التي لم يذهب إليها أحد، إلى الغرباء الذين لم تتعرف إليهم الملائكة بعد، ذهب هناك ليتقبل الأسماء والأفعال والحروف، يطأ الكواكب التي لم يطأها أحد، ويأكل السماء التي ابتلعها الإله توا.

نظام الملك.. هو العابر المهدب الذي يتعجل الوداع، قتله التزاريون لأنه شم رائحة الخبز النيء الذي لم يخرج بعد من التنور.

XIII

قال نظام الملك: "لا نظام ولا ضلالات أخرى.."
لا فقيه ولا ملكا ولا شيخا ولا جبلا، سعيد أن يكون لشعرك نظير

آخر في الخمارة التي لم يغادرها بعد، وللخمرة التي لم يتعرف الغرباء عليها كل يوم.

إنك لا ترفع الصوت أمام القتلة المقدسين في الإسلام، ولا أمام الفقهاء ولا أمام السلاطين، إنك ترفع صوتك أمام الخوندارية، وعيون الفيلان التي يدسها الإمام.

XIV

عند الظهيرة، حينما ينهي القضاة جلساتهم ويأمرون بإعدام الحشاشين، تهرع النساء إلى السوق، يجمعن في باطية الخمرة قطرات عرق أجسادهم الذهبية، داعية أذرعاً أخرى تسرق الخناجر وتنقض على الهاربين من الحراس.

XV

في نيسابور روح تحلق على محفة كبيرة مذهبة.
نار وحشيش تتقد في الظلام.
خنجر مجرد يلامس الخواصر، و على القلاع المحززة السوداء كان الأمير مشنوقاً من حممته، تلعب به الريح مثل غصن صغير ولحيته الطويلة ترفرف في الهواء.

XVI

وجه ينظر قمراً أسود في النهار، عمامة سوداء تظهر وتختفي،
أنف الإمام يشتعل من الرعب مثل دينار.

إنه الكلب الذي يعوي، والمجدد الذي يوسوس، وهذه إذنا نظام
الملك المشفتان من الخوف
في غيابة الصمت، وجهه الجامد يرتجف أمام الوقت الذي يمر مثل
أبرص يتأوه في المساء.

XVII

قالوا لا خوف عليه.
نظام الملك سلك طريقا صغيرا أمام الحشاشين الذين أصداهم المطر،
واضجرتهم ريح خراسان الباردة، والحسن الصباح غفا حين أطفأت آخر
شرارة وميضها في رماد الموقد. وكان الموت يقلب سحنه الصفراء ويمد
لسانه الأحمر مثل مشنوق.

XVIII

هذا قصره الذي صدعه الضياء، وغابته النيسابورية التي خزقتها
الطرق المتعرجة، هذه شهقته الإمبراطورية المتفجعة، صرخة أتباعه الباكين،
والضحكات الشرسة للحسن الصباح التي ترعش الأوراق على الشجر.
هذه صلوات التائبين السود، والمصحوبة بصراخ مجرم في السجن،
وأخر كلمة تلفظ بها نظام الملك.

XIX

إنه يلفظ أنفاسه ممدا بين أيدي الفلاسفة والفقهاء،
محتضرة تصارع معلقة على اغصان شجرة. هذا الحارس الذي يشق

وثاق نظام الملك، ويشد الأمير على قضبان عجلة. حجرة فيلسوف ميت.
وعشيقته ستدفن بثوبها الأبيض بين كتاب السياسة وأربعة مشاعل.

XX

هذا نظام الملك الذي قتلناه.
عصا الطاعة التي تمزق باول ضربة جلده فيطير مثل زجاج.
روحه التي انطفأت مثل مشاعل الفاطميين تحت سيول المطر.
روحه التي تابعت مسيرها مثل ورقة في الجدول، بينما تابع
الحشاشون أحلاما أخرى نحو الصحوة.

الجزء III كتاب ابن سينا

I

أنت لم تعد حتى الآن من فنائك، لم تعد من عدمك، من ميقاتك، من
وجودك، ها هي عمامتك وهذا صندلك، هذه هي عصاك وتلك كتبك، وأنت
لم تعد حتى الآن من نورك وعتمتك، من قبرك وبيتك، وترابك، أنت لم
تعد حتى الآن من فكرتك، من مطلقك، من وجهك الآخر من الوجود.

II

أنت لم تسترح حتى الآن في قبرك، ولا في إنشائك، ولم تكف عن
الوجود، أنت لم تفكر بنا مثلما تفكر بعدمك، تفكر بشهية الكائن

بالدغدغة المشغولة بأعصابك وإعصارك، بالحياة، بأمر واحد فقط هو أن تعيد إلى الكائن شهوته، ونقطته وتستريح في عدمك، بالألم الحقيقي الذي تصنعه الأفكار، ليس بالموت تماما، بأمر قاس حينما لا نكون موجودين، بما يشغلك من عذاب، هذا هو عالمك البعيد والغريب، هذا هو عالمك، وأنت لم يصعد من قبرك إلى السماء سوى ومضة.

III

بلهاء تتقدم لسانك، بلهاء تلغي كل فكرك وتأملك وصمتك، وتعثر على نفسها من خلال تلعث أو خدر لسان، من خلال سوء تركيب وجلجلة، من خلال أشياء كثر، بمقدار من الطيش بكلام لا تستعمله، ولا تستحضره ولا تلغيه. من أنت؟ فكرة وحيدة، فكرة في مطلق غير محدد، مطلق من يحده؟ من يصل إليه؟ من أنت مفردة واحدة؟ اسم، أم لاحقة هذا الوجود؟ كلمة لا معنى لها، كائن؟

IV

من أنت.. فكرتي أم فكرتك.. أم فكرة في الغياب، في العدم، في ضمير الله؟ محاصر أنت من لغتك، من مفرداتك وأفعالك وكتبك وأحجارك وأعشابك، من عدمك ومن الفكرة... أنت محاصر مرة أخرى بوجودك، محاصر بعدمك.

موتك عناق يرتخي، روح عبثا تحاول أن تخلق مثل فكرة.

طهران ٢٠٠٥

ترانزيت، حقائب، وشعراء

كان والتر بنيامين أول من أدرك بعبقريته الفذة أن تحولات الفن الشعري شبيهة بالترانزيت، أي إنه العبور المعمم من حقبة شعرية إلى أخرى، دون الرغبة بالهبوط إلى أرض محددة، فالتحول أبدي، والانتقال أبدي، والترانزيت هو السمة المعمة القصوى. ولكن هل تحتاج الحياة الرغبة المعمة إلى ترانزيت آخر، هل يحتاج الشعراء حلم الرحيل، والرغبة العارمة والأبدية إلى ترانزيت المطارات، والجغرافيات، والبلدان، والعبور من مكان إلى مكان، مع الحقائب الجلدية المحزومة بالملابس الأثيرة، مع الكتب المفضلة، مع العطور وأدوات الحلاقة، مع الأوراق البيض التي تنتظر الأفكار لتسودها، مع الأقلام التي تنتظر الأصابع، والدفاتر التي تنتظر الحبر الذي يسود سطورها.

"العالم محتشد بالمطارات،

ومطارات العالم محتشدة بالمسافرين والمترحلين".

هكذا كتبت مارغريت بلاك مور في رسالة بلاغية طويلة إلى مفكر تبتي عجوز يقبع منذ ستين عاما في سقيفة خشبية جنوب مدينة بكين في الصين، لم يغادر هذا العجوز الكونفوشيوسي سقيفته التي لا تحتوي إلا على أقل ما يديم الحياة، أبدا، لم ينتقل من مدينته إلى المدينة

المحاذية والتي لا تبعد سوى فرسخين ونصف عن مدينته المستقر، بقي في المكان ذاته، على الكرسي ذاته، على الطاولة ذاتها قرابة نصف قرن، ولا يتذكر من مدينته التي لا يحبها كثيراً غير الشارع الذي يقطن فيه، حيث يذهب كل مساء إلى حانة في الجوار.

في التقابل مع العالم المتحول هنالك عالم ساكن ومتجذر وأبدي، في التقابل مع العالم الجامد هنالك عالم متحرك ومتنقل ولا ينزع على الإطلاق إلى قرار، هكذا نجد أنفسنا على الدوام أمام هذه المعادلة البشرية الصعبة، المعادلة التي لا تصالح فيها ولا تواطى ولا قبول وهي معادلة متعاكسة، ومتناقضة، ومتضاربة على الدوام.

في كتابها "سيميا الرحلات والسياحة الثقافية" تقول جين شيفريون: "علامة الترحل هي النقطة الأبهى في النظام الثقافي للحضارات"

إذن ماذا يقول الشاعر القلق المتنقل أبو الطيب المتنبي لساكناً مقيماً ومتجذراً مثل أبي العلاء؟

هل هو القلق البشري فينا أم هو القلق الشعري في كل إنسان؟ كما يتساءل جيروم غام في كتابه الشعري الشهير: "على الحقيقة أن تكون خضراء". إنها الرغبة للانتقال والتحول من عالم إلى عالم، من بلد إلى بلد، من مطار إلى مطار، من شارع إلى شارع، ومن مدينة إلى مدينة، عبر الانهار والبحار والمحيطات، عبر أطالس لا تنتهي ولا تحد، ولكن هل هو القلق البشري الذي يولد فينا كل هذا النزوع إلى الانخلاع، وعدم الاستقرار، واللاثبات؟ هل هو القلق الشعري الساكن فينا هو الذي يبعث فينا الرغبة في السفر والتشرد والترحال، بماذا يختلف المتنبي إذن عن فاسكو ديغاما، وبماذا يختلف رامبو عن ماجلان؟

هل نحن في عالم مسكون بالبدأة المعمة، نعم إنها البدأة هذه
الكلمة-المفتاح التي كرهتها الحضارات بأجمعها، وشنع بها المفكرون
على اختلافهم، من ابن خلدون إلى بروديل؟

غير أننا بدو، في نهاية المطاف، الروح البدوية التي تجعلنا
مسكونين بهاجس السفر والرحيل، مسكونين بتحولات الحياة، والألوان،
والملامح، مسكونين بعوالم جديدة، ورؤى وعرة تنزلق نحو الدخول الحذر
إلى مناطق محظورة، مسكونين بالتلصص على عالم آخر، لنصبح شهودا
آخرين على عالم جديد، شهودا على عوالم بصرية وحسية جديدة، على
شخصيات، ديكورات، ألوان مختلفة.

"مدن تضيق على الأجساد،

ومدن تنفتح لأجساد جديدة"

هكذا كتب بول تسيلان في واحدة من أجمل قصائده، إنها سنوات
تمر مخلفة بقايا عطر المدن، وصورا، واكسسوارات، ورغبات، وهنالك في
المطارات عالم ضاح ينحو في الذاكرة إلى الرحيل إلى عالم آخرس.

آثارنا مهاجرة في قبرص

"قبرص.. بحارها هادئة" قالت لي صديقتي اليونانية التي أشعلت سيجارتها من سيجارتي ووضعت حقائبها الجلدية على كتفها ومضت... كان ذلك في مطار أتاتورك في اسطنبول، وهي عائدة إلى أثينا.. طبعتم قبلة على خدي وغادرت بسرعة إلى بوابة الممر الذي يقود إلى طائرتها.

بقيت ساعتين في المطار، كان السياح القادمين من كل مكان يملئون الباحة الطويلة التي تنتهي بأكشاك موظفي المطار، تمددت على المصطبة من التعب والإرهاق، ونمت، حتى شعرت بأصابع شابة على كتفي توقظني، ربما تفوتك طائرتك، شكرتها، أخذت حقيبتي وهرعت إلى الممر الذي يقود إلى طائرتي وبعد ساعة ونصف هبطت الطائرة في لا رنكا. لم يكن الخليج المرجاني والأكاماس أقل هدوءاً من الشاطئ، غير أن سلاحف البحر الصغيرة عشعشت في الرمل. وبيترا روميو في جنوب الغرب مسحوة بمشهد الغروب الذي لون الشريط الساحلي الصخري. هذه ليماسول.. كما لو كان الصوت يأتي من التاريخ لا مني. هذه بافوس الشواطئ العائلية الصغيرة التي تنقُط الشريط الساحلي بالمطاعم والمخيمات والفنادق الصغيرة، كوريون القديم في قلب

ليميسوس والعائلة القبرصية غطاها ضحل البحر ثم غسلتها الموجات المتعاقبة حتى تبدد الزبد على الساحل... لم نبتعد كثيرا عن الشواطئ، كانت المراكب تجيء وتذهب، وبعض السياح في الحديقة الأمامية للفندق يلعبون الكرة الطائرة، وعلى مقربة منهم ممرات خشبية تقود إلى الأسرة ومساح الشمس التي تعرضها الفنادق أمام الواجهة المائية للبحر.

*

هذه نجمة المتوسط، شقة بيضاء هادئة في الصيف الحار تشق البحر، يونانيون أتراك عرب وسياح من كل مكان في العالم، موائد قمار، بيوت دعارة، صحف مجلات، أوكار الجواسيس والمخابرات شركات وهمية وأخرى حقيقية، مهربون، خائفون، سياسيون، هاربون، باعة فقراء، كسبة، معلمون، غرباء من كل مكان، قبرص بلد من لا بلد له.

*

انطلقنا إلى قرية فاروس قرب لارناكا، إنها مياه قبرص الهادئة. غصنا أنا وصدجيتني في البحر حتى لامست أصابعنا حطام الباخرة زينوبيا التي غرقت في خليج لارناكا في العام ١٩٨٠، وفي أقصى شرق قبرص استمتعنا بالفضاء المشرق لأجيا، ونابا ومياه البيجساند وشريط لبروتارا الذهبي، وخليج رأس بيللا، رأينا الدلافين التي تعوم هناك، ترتفع في الهواء إلى الأعلى ثم ترتطم في سطح الماء هابطة إلى الأعماق، تصعد وتفقهه مثل الآلهة اليونانية.

قبرص مملوءة بالمواقع والكنوز القديمة؛ أنت لست بحاجة إلى أن تسافر إلى الطريق المضروب لإيجاد كوريون، بفيسفسانه ومسرحه في الهواء الطلق، المسرح المبني كلياً من الحجارة، أشبه بفندق يشرف على

البحر المتوسط الرائع، أو حصن بافوس القديم. في صباح ليماسوس الجميل ذهبنا إلى متحف قبرص الكائن من القرون الوسطى، زرنا متحف الفن الشعبي، وقلعة ليماسوس التي تحتوي على المصنوعات اليدوية، ذهبنا إلى موقع كوريون الآثاري، وفي المساء ذهبنا إلى مسرح جريكو القديم والمشيّد منذ العصر الروماني، ويشرف على البحر المتوسط.

*

في صباح أحد كانت الشمس تتسلل من ستائر نافذتي، رن جرس الهاتف، كان صوت صحفي لبناني يدعوني لزيارة مواقع صحفية عربية في نيقوسيا، وزيارة بعض الشخصيات العربية التي تقطن من زمن بعيد، شخصيات إعلامية، سياسية، تجارية، صناعية، ثقافية، دينية... ضاقت الأوطان فاتسعت قبرص!

أجمل ما في قبرص الحصون الفينيقية القديمة المشيدة في القرن السادس عشر. قال لي تلجر عربي يقطن قبرص منذ أكثر من عشرين عاما.

هل ستعود إلى بلادك؟ فأطلق حسرة تشبه المستحيل.

كنا نمر قرب الدكاكين الصغيرة جنب المقاهي والحوانيت ومتحف المجوهرات، كنا نتمشى في المدينة ونحن نستمتع بمشهد الأزقة والمساكن القديمة ذات الشرفات المزخرفة التي تبرز من جدران الحجر، كنا نسير في حي «لايكي يتوتيا» نيقوسيا القديمة.

-أحب هذا المكان لأنه يذكرني بمدينتي.

أما دكاكين التاجر العربي ومحلاته فقد كانت تحيط بهذا الحي القديم... وأخرى في المدينة الحديثة التي تعد مركزا عالميا للحضارة،

وتعتبر مركزا للمحلات التجارية وتشتهر بمطاعمها المختلفة وتوجد بها سلسلة من المؤسسات العلمية الدولية وأماكن اللهو والترفيه، ثم حدثني عن حياته، فقد كان سياسيا أول الأمر، تعرض للسجن في بلاده، فهرب في السبعينيات إلى قبرص، عمل في الصحافة أول الأمر ثم في التجارة، وهكذا ترك السياسة وأصبح ثريا كبيرا في قبرص ولكن لا عودة للأوطان.

كنت في متحف قبرص أنظر إلى بعض اللقى والآثار العربية هناك، كنوز مهاجرة من خلف المتوسط لتتربع في قبرص، ينظرها السياح والآثاريون ويلتقطون لها الصور من خلف الزجاج، أحجار ثمينة من سوريا والعراق ولبنان... آثار عبرت الصحارى والبحار والجزر لتستقر في نيقوسيا ...

آثارنا مهاجرة أيضا... قال لي الصحفي اللبناني وهو يضحك.

من مارسيليا إلى إكس بروفنس أسطورة المعنى والأعراق المختلطة

على خطأ الطهطاوي... سرت... على آثار أقدامه، في الظل الذي تركه، في المقهى الذي جلس فيه، في شارع الأورينتال الذي تحول إلى قاطنين عرب ويهود وأفارقة وفرنسيين، في المطعم العربي الذي أصبح يقدم الفتة والفلافل، في المركب العربي الذي اسمه طنجة، في الأغنية المصرية التي تصدح في البورت فيو... على خطاه سرت... وهو يتراءى لي من بين الشوارع المكتظة المزدهمة بعمامته الأزهرية الصغيرة، وملابسه التقليدية... مسح المثقف التقليدي... أو بطل المطالبة بالحدثة في الإسلام...

*

من محطة سان شارل كنت أتطلع إلى الشارع العربي الذي يمتد من المدرجات الرخامية التي تصل إلى أسفل... الهجنة.. ربما لم تفهم ما أعنيه، غير أنني كنت أنظر إلى أعراق أفريقيا وأوربا كلها فوق هذه العريسة البيضاء، حيث يتكرر الصوت منذ القدم، صوت الباعة المتجولين وهو يمتزج مع صوت زحافات البواخر التي تصل رصيف المرفأ، زقزقة العصافير التي ترف بصوت متصالب في الفضاء مختلطة مع

هورنات السيارات، صوت الموسيقى النابضة وهي تتداخل مع الهمهمات الهاربة لبائعات البيبسي في سوق الظلام، وأصوات العاهرات المغربيات وهي تتداخل مع صوت القواد المصري الذي يجلس على كرسي من الخشب في شارع الفترينو... ويضع أمامه بسطة لبيع السجائر والعطور.

كنت أشعر بأمواج المتوسط وهي تهدر على الساحل، كنت أشعر بالشمس الأفريقية العظيمة وهي تسقط بأعمدة مخروطية، فتضيء هذه الجملة الإلهامية أمامي، كنت أشعر بهذه الصورة الساكنة وهي تبزغ مرة أخرى من أسطورة الأعراق لكنها بطريقة معكوسة تماما، إنها تبزغ هذه المرة من أفريقيا وتتجه شيئا فشيئا نحو أوربا... كان يتحدث كما لو كانت أفريقيا تنفتح على مشهد من القرن التاسع عشر، تنفتح على مآدبة للمرتزقة وللوكلاء التجاريين وللمستعمرين الذين يخططون لاجتياح الأرض.

في تلك اللحظة شعرت وكأنني أطوف مستعمرات الطليان في بنغازي:

منازل تبتل بالمطر، وواجهات متاجر تفوح منها رائحة البوبوت والزيت المغلي، سائق عربة أعور في طريقه إلى طبرق، حوذيون زنوج، قبائليون، وشعب من المستعمرين البيض في قلب بنغازي، إنها المدينة الرومانية التي بشعتها الأخطاء المقدسة:

*

غادرت مارسيليا في الصباح الباكر، كانت المحطة الرئيسية مزدحمة بالمغاربة الذين يرمون طرايطهم إلى الخلف، وباليهود بقبعاتهم السود وملابسهم السود وقبعاتهم، رجال، نساء، وصوت القطار يجأركي يشعر المسافرين يتحرك قطار إكس آند بروفونس، في الجنوب يكون

المتوسط أزرق صافيا تحت الشمس الساخنة، وفي الشعاع الأصفر، والعرب أكثر ما تميزهم من هذا الخليط المتوسطي الذي يشبه مآدبة المرتزقة في سالامبو، بوجوههم الصامتة بأيديهم المعروقة وملابسهم التي حافظوا عليها أينما ذهبوا.

حين هبطنا في إكس أند بروفونس كان المشهد مختلفا نوعما من مارسيليا الجنوب العربي والمتوسطي غير أن المغاربة والتونسيون يشكلون المشهد أكثر من مارسيليا الجزائرية، ويمكنك أن تميز أسماء المطاعم أيضا، من مطعم كساب إلى ألف ليلة وليلة أم كلثوم الرباط كاتب ياسين الحمامات... الخ وفي ساحة ميرابو يكون القصر القديم والكنيسة القوطية بسلمها العجيب ومتحف سيزان الذي ولد فيها أما شارع كاردنال فتقطنه الكاتبة الفرنسية الأشهر في الوقت الراهن بول كونستان ، سألت صاحب مطعم مغربي عنها المنزل.

تريد منزل الست بول يا مرحبا في شارع الكردنال قرب متحف سيزان، وأكمل أعرفها وأعرف زوجها السيد أوغوست هنا يأتوا عندي وحتى أبناؤها ثم ذهب أخرج لي صورة لطفلين صغيرين وقال هذه صورتني مع أحفادها.

سرت في شارع الكردنال حتى وصلت متحف سيزان كان السياح يتجمعون بشكل ملفت على المتحف قال أحدهم إن الحجز يتم قبل شهر للدخول... فهذا العام هو مؤبة سيزان والمدينة تعج باحتفالات الفنان البروفنسالي الكبير: مجلات، بوسترات، مسرحيات، عروض موسيقية... كلها تستوحي أعمالها من لوحات وحياة الفنان بول سيزان، أما صورته فهي معلقة في كل مكان تقريبا، بورترية الذي رسمه لنفسه بلحيته وقبعته الشهيرة وغلونه تجدها في كل مكان.

ثم أشاروا لي إلى محل بيع سوفنيرات ولوحات مصورة وجلات عن سيزان، حينما وصلت فوجئت أن البائع لبناني ، كان رساما هاجر أثناء الحرب الأهلية ثم اشترى عروضاً مرصخة لوكالة بيع كل المطبوعات التي تخص سيزان وأجمل ما قاله لي:
-انظر فرنسا دولة عربية.

وكان يعرف منزل بول كونستان بطبيعة الأمر وأشار لي إلى فندق كبير يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر، البناية ٢٩ من شارع الكردنال في إكس أند بروفونس، طرقت البوابة الضخمة، فاستقبلني الكاتبة مع كلبها أنجلو وهو من سلالة كلاب الكاتبة الفرنسية الشهيرة التي عاشت في القرن التاسع عشر كوليت، ثم أرثني كتابا كان موضوعا على الطاولة اسمه الكلاب المشاهير في عالم الأدب، وأنجلو كلبها هو من سلالة كلب كوليت المشهور.

-ها أنت تقطنين في منزل قديم...هل هو استيحاء من روايتك الغابال العظيم وهي عن النساء في القرن الثامن عشر، أم من كتابك العالم من استخدام النساء.

-ربما الرواية من وحي المنزل، هذا المنزل هو منزل رسام في القرن السابع عشر، كان رساما للملك أوانذاك، وما زلت احتفظ ببعض لوحاته، في المنزل في في الصالة وفي المكتب، كتابي عن نساء القرن السادس عشر فكنت معنية بالأميرات والارستقراطيات العظيمات فلو لاحظت أن كتب الرجال في تلك الفترة تدور حول فكرة الحرب والغزو والاحتياز...العالم، كعالم وكفكرة كان هو موضوع استخدام النساء في ذلك الوقت، فهناك المرأة والموديل والأسطورة واحتلت المرأة الأرستقراطية كل شيء في ثقافة القرن السادي عشر الأميرات

الأرستقراطيات لسن كل النساء، ولكنهن احتلن كل شيء في ثقافة القرن السادس عشر من كل الإنسانية اختيرن ليكون مذبحة مؤقتة لفضائل الأنوثة، كما لو إنها ضامن الفضائل النسوية العظيمة، على مدى العصور كانت تحصل على عناية واهتمام غير محدودين، لقد حصلن على تعليم راق جدا، وحصلن على معارف جمّة، واحتل قدرها أرواح أكثر الناس شهرة في ذلك العصر، وقد أصبحت الدموزيل، أصبح العالم كله في متناولها، أما بالنسبة لرواية الغابال العظيم، -أنت تنطلقين من فكرة أن العالم يشتم المرأة ويقدها في آن واحد. -بالضبط هذا ما ذكرته كريستيان دويشان.

-نعم ولكن إلى حد كانت كريستيان دويشان معنية بالأسطورة الأنثوية، وهنا أسطورة النساء المحاطات بالجلال، وهي تكتب كتابها مدينة النساء وأنا لا أريد أن أذكر قصة نساء الأمازون، وأنت ذاتك عملت فلما مدهشا عنهن، لكن الأسطورة من حيث تجسيدها في عمل كريستيان بيزان، أي المرأة الأولى التي تأخذ بيدها مرآة والثانية تحمل السفرة، والثالثة تحمل المزهرة المصنوعة من الذهب الرقيق، وأنا ألمح هنا إلى اليوتوبيا...

-أنت محق فيما يخص المعنى الظاهر ولكن لو عدنا إلى الرمز سنرى الأمر مختلفا قليلا، الرمز الأول يعود إلى العقل الثاني إلى العدالة، والثالث يعود إلى الاستقامة.. وهنا أيضا الرسالة أو الشفرة، فهذا السر محمول ومعطى كرسالة من السماء لهن لبناء مدينة النساء la cité de ce monde والتي تفيد بأنها ملجأ للفضائل الأنثوية والتي تركت منذ زمن بعيد، وفتحت كحقول من غير نطاق ومهزوم بسبب أخطائه الدفاعية.

مارسيليا.. شاعرة الجنوب

وصلت محطة السان شارل صباحا.. هبطت الدرجات الرخامية التي تقود إلى الشارع الكبير والمقطع بالأشجار العملاقة. شوارع صغيرة ومزدحمة ترتبط به. كانت التماثيل الرخامية على الجانبين ومن الأعلى تبدو مارسيليا مستلقية على البحر اللازوردي... سرت في الشارع العريض... كانت المحلات التي ترفع إعلاناتها نشطة وحيّة. المكتبات الكبيرة مملوءة بالكتب على طول الشارع من عند الكاتدرائية الكبيرة وحتى الميناء القديم. الهندسة المعمارية لمبنى البلدية قديمة ومدهشة ذكرتني بإسبانيا الجنوب. الشمس الذهبية تلتقي من بعيد باللون اللازوردي للبحر المتوسط. من بعيد يلوح أجمل ميناء على الأرض، إنه المرفأ الشهير لسفن الصيد، الميناء القديم أو البور فيو... الجزء الأكثر روعة من المدينة، حيث الحي الشعبي من الناس المحليين والسياح.

-ربما لم يعد هو النشاط التجاري الكبير كما كان، لكنه ما زال مملوءاً حتى الآن بسفن الصيد واليخوت والعبّارات بين مارسيليا وكورسيكا، وساردنيا، قال ولفرد فنكل... البحار بملابسه الرثة وقبعته التي تنتمي إلى بحارة الثلاثينيات من القرن الماضي يعرف كل شعراء المدينة، وكل الشعراء الذين يمرون بها.

دون اسمي على ورقة... وسأل:

أنت شاعر أليس كذلك؟

ثم قتم: أنا أدون اسم كل شاعر هنا... وما أن يذكر اسم أمامي حتى أقول نعم هذا الشاعر مر بمارسيليا في العام كذا... ثم غنى لي قصيدة لبير لويس: دامت العاصفة طوال الليل. سيلينيس ذات الشعر الجميل، جاءت لتهرب معي...

كان وجه البحار القديم مثل البور فيو يذكر دون شك بانطونيو غامونيدا بوجهه العجوز القاسي، وهو يقول: هاهو القمح، قيلولة الأفاعي...

هل تعرف غامونيدا؟

- طبعاً... قال وهو ينظر جهة المطاعم والمقاهي التي تشرف على الميناء. كان يمكننا أن نراقب حركة البخوت على البحر من خلال شرفات في الهواء الطلق، أما البقعة المثالية للمراقبة هي رصيف المرفأ، حيث جلسنا أنا والبحار ولفرد وأكلنا شوربة السمك اللذيذة بوبييس والمطعمة بالخضار... ومن هناك كنا نتطلع إلى الشارع العربي الذي يمتد من المدرجات الرخامية المنحدرة إلى نهاية البور فيو... وفي الأفق كانت أشعة السفن تمتد على طول محيط المرفأ، قال لي: هل تعرف إن الشاعر اليوناني أوسترياس قال يوماً أن مارسيليا هي الهجنة... حين قالها ذلك الوقت لم يفهم أحد ما كان يعنيه...

سرت في الطريق المحاذي للكورنيش الرطب مختصراً شارع الأورينتال، وكنت أستمع لأصوات مختلطة في الفضاء... حيث يتكرر الصوت منذ القدم، صوت الباعة المتجولين وهو يمتزج مع صوت زحافات

البواخر التي تصل رصيف المرفأ، زقزقة العصافير التي ترف بصوت متصلب في الفضاء مختلطة مع هورنات السيارات، صوت الموسيقى النابضة وهي تتداخل مع الهمهمات الهاربة لبائنات الملابس في سوق الأورينتال، وأصوات المفريبات وهي تتداخل مع صوت العامل الزنجي الذي يجلس على كرسي من الخشب في شارع اليهود... ويضع أمامه بسطة لبيع السجائر والعطور.

من ميناء البور فيو كنا ننظر إلى كاتدرائية نوتردام دي لا غارد، المشيدة في القرن التاسع عشر، والتمثال الذهبي لمريم العذراء يحرس كل البحارة والمسافرين الذي يمرون إلى جزيرة فريول حيث سجن هناك الكونت دي مونت كريستو.

أشار ولفرد فنكل بيده في جزيرة فريول... ذلك هو السجن... كنت أنظر في العتمة التي قبع بها الفارس العظيم كريستو كما لو كنت أنظر إلى ظلي وهو يرتسم على الأرض الحجرية الخشنة... من غير المحتمل أن تلتصق الأشياء العظيمة بهذه المدينة الساحرة كما يلتصق الوسخ بالجلد... أما المحطة الرئيسية فكانت مزدحمة بالمغاربة الذين يرمون طرايطهم إلى الخلف، رجال، نساء، أطفال، أعراق مختلفة، مهن متنوعة، أزياء عديدة... بينما كان صوت القطار يجأركي يشعر المسافرين بتحريك القطار الذاهب إلى إكس أون بروفونس، إنه الجنوب حيث يكون المتوسط أزرق صافيا تحت الشمس الساخنة، والعرب هم أكثر الأقوام الذين يمكنك أن تميزهم تحت الشعاع الأصفر للشمس، من هذا الخليط المتوسطي الذي يشبه مأدبة المرتزقة في سالامبو، يمكنك أن تميزهم بوجوههم الصامتة أبدا، وبأيديهم المعروقة الجميلة، وملابسهم التي حافظوا عليها أينما ذهبوا.

خاتمة

بعد نهاية كل رحلة من الرحلات، وبعد أول عودة لك، ستجد تنوير القلب أكبر من تنوير العقل، تجد نفسك مضاعفا لا بسبب المعرفة... فربما تعود وأنت أقل معرفة مما مضى، ولكنك تشعر بأنك تغيرت، فالرحلة الحق هي التي تشعرك بالتغيير، تشعرك بدماء الآخرين وهي تجري في عروقك، النموذج الذي تحبه وقد أصبح ميزان الأعصاب على حد تعبير أنطونان آرتو، تجد نفسك في الحياة ذاتها، أو فيما يجب أن تكونه، وربما تكمن الاستشهادات هنا في المحاورات ذات الفضاضة الملحة والتي تتوافق مع الإطار الزخرفي الجميل والحي للحياة، والنساء، والدكاكين، والحدائق، والجوامع، والشوارع، والفنادق، والنهارات...

وهكذا تتعلم مع كل رحلة أن العودة هي غير الوصول، والشعور بالخيبة والمرارة لا يتوافق مع الفرح الجميل بالفن، وبالفضاء الذي يمنحنا لغة جديدة وأسلوبا جديدا، ثم يولد نصوصا تتعلق بالكاتب وبالحياة، حيث يعبر النص هنا عن علاقة الفن الحميمية بالحياة... وربما تصبح هذه العلاقة للمرة الأولى مقبولة ومباركة... وهكذا نقرب في نص الرحلة من تحديد مفهوم للفن، أو على الأقل من تحديد مصدر الفن، فالعمل الملهم يجب أن يكون على علاقة ما بالدهشة والاكتشاف، ذلك عندما يصبح الفن مجرد تقليد لمظاهر العالم فانه يكون واقعيًا وبالتالي خلوا من الإلهام.

ما هو مهم، هو المضمون الذي يعطي الفكرة وضوحها الجارح، ويعرض

تناقضاتها، ذلك لأن المجهول الذي ننطلق لاكتشافه غير مهم قدر إزاحة تراكم النظرات عن المكان، فهو ليس الأيقونة التي تحمل للمؤمنين المجهول الديني، إنما ما مثله الأيقونة لمجهولهم، أي أنها تجلو في اللحظة الحاسمة كل النظرات، وهكذا تتحرك الرحلة في غموض اللغة لتعبر بشكل صادق عما لم يتكلم به المكان، وهذا التعبير قادر أن يكون متناغما مع الشعر طالما أن الشعر اكتشاف والمكان اكتشاف، وعلى الستارة الجميلة التي تهتز أمامنا ترسم الشمس لوحة ملونة فوق التلال في بلد بعيد لم نزره من قبل، وأمام فاصل من الأشجار الذي يحجزنا، نسمع امرأة تصيح على صديقها من خلف آلاف الحواجز التي تفصلهما... من خلف التلال والشوارع والفنادق والدكاكين.. وهذا الصوت الغريب وغير المؤلف والمقال بلغة غريبة عنك، ونبرة غريبة عنك، وربما أنت لا تعرف اللغة أصلا... هو الذي يصلك وينغرز في ذاكرتك ويرسم مثل جرح...

إنت تسمع تلك اللحظة هدير الحياة وهو ينبض في هذا المكان، فلن يكون المكان، ولا الظهيرة مهما كان جمالها، ولا الشارع، ولا التلال ولا الأيقونات وهي تحيا بهذا الجمال المطلق دون هدير الحياة الخالد الذي يمنحها قيمتها ويوقعها، لا عند الذين يعيشون اليوم فقط إنما حتى عند الذين وقعوا هذا المشهد ومضوا أيضا، وهذا ما حدث لي بالضبط أمام النقش البارز (الريلف) الذي شاهدته في بريسبوليس في مدينة شيراز في إيران، فقد وقفت مندهشا لا لعظمة الأسلوب الذي صور المعنى إنما للمعنى البشري الذي كان يتضمنه أيضا، فالنقش البارز قد صور اللبيين والأثيوبيين والعرب والرومان وغيرهم... فجعلني أشعر لحظتها بأنني في المكان الحاسم من التاريخ، لا بل شعرت بشكل مطلق أن الذين وقعوا على هذا المكان هم الذين وضعوا المكان في التاريخ، وإنهم ما زالوا في المكان ذاته ولم يغادروا التاريخ.

المكان يبدأ من وجوه الناس لا من اللاشيء، أو من راديكالية الفراغ كما كان بورديارد يسميه.. هل هناك فراغ حقيقي هل هناك خواء.. بماذا تفيد الرحلة إذن؟ تفيد الحقيقة؟ تفيد الواقع؟ هل تستنفد نفسها؟ ما هي مصادرها؟ ما هي قصديتها؟ ما هي غاياتها؟ وما هي إجراءاتها؟.. ربما تنتهي الرحلة إلى فراغ وربما إلى نص، لكن الفراغ بحد ذاته هو نص وربما أبلغ من كل نص يكتب... لا لأن المكان عصي على التصوير، أو هو أعظم من كل ما تمتلك من أدوات، وهو أثرى وأخصب من اللغة مطلقا، بل أنا أعتقد أن اللغة أعظم من المكان وبها ينخلق المكان أصلا.. ولكن الفراغ المطلق يحدث حينما ننطلق نحو المكان ونتحد به.. وبذلك يصبح المكان أعظم من النص.. فالنص الذي نكتبه ليس بديلا عن المكان مطلقا، مثلما لا يمكن لنص الرحلة أن يكون بديلا عن الرحلة.. ولكن النص حضور لغياب، فالمكان يغيب.. أو بالأحرى يبقى في مكانه، وما نأخذه من هذا المكان هو النص عنه، هو حضور المكان في النص والذي يتم فيه استحضار المكان الغائب في مكان آخر..

هذا هو نص الرحلة... إزاحة عما تراكم على المكان من نظرات ومن زمن، والرحلة هو ما تكشفه النظرة المتجددة، وهدير الحياة الخالد، واللغة الجديدة، ولذا فإن كل رحلة لا تشبه رحلة أخرى، وكل نص لا يشبه نصا آخر.

ربما يجمد نص الرحلة اللحظة التي تمنع عن المكان الرحيل والذبول، فالمكان يتحمل هذه الحرية ليخلد طويلا ويجعل علاقتنا به أكثر حميمية وأكثر أصالة... بهذا الاعتبار تصبح الرحلة نشيدا، وذات طبيعة نبوية أيضا، الرحلة هي غريزة أن نأسر المكان داخل النص، وأن نأسر الفضاء داخل الكتابة، ونستحوذ على العالم عن طريق الشعر... فعبر نص الرحلة نقترّب من خرائط منتصف الليل لنصل إلى العالم، وربما نصل دون أن نعلم إلى السحر الذي يعلمه أورفيوس في نشيده.

صدر للمؤلف

- بابا سارتر، رواية، رياض الريس ٢٠٠١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦، قصور الثقافة في مصر، ٢٠٠٧. (جائزة الدولة للآداب، جائزة أبو القاسم الشابي).
- شتاء العائلة، رواية، دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٦. (جائزة الابداع الروائي)
- صخب ونساء وكاتب مغمور، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ٢٠٠٥، الطبعة الثانية ٢٠٠٧. (منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية).
- الطريق إلى تل المطران، رواية، رياض الريس، ٢٠٠٥.
- الوليمة العارية، رواية، دار الجمل، كولونيا، ٢٠٠٥.
- ماسنيون في بغداد، دراسة، دار الجمل، كولونيا، ٢٠٠٥. (شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس).
- مصاييح أورشليم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦.
- خرائط منتصف الليل، رحلات، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٦. (جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي).
- الركض وراء الذئاب، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧.

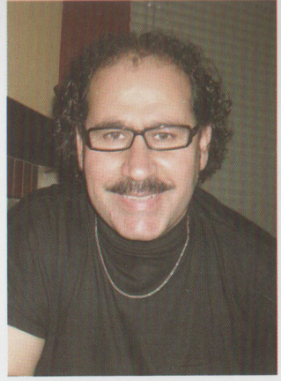
الفهرس

5	تصدير الرحلات
7	الإهداء
9	المقدمة
17	في ظلال البازار الكبير
	رحلة إلى اسطنبول
19	I- الوصول إلى المدينة العظيمة
26	II- ساحل البسفور
34	III- شعراء تحت البازار الكبير
37	IV- بون فوياج
43	V- سراي العالم القديم
48	VI- اسطنبول باموق
52	VII- تجوال الملائكة قرب غالاطا
57	VIII- السياح
61	IX- أغاثا كريستي
	اسطنبول دوقة الموت وأسرار الكتابة

- 67 هذه أثينا وتلك ماريلا المولعة بالشعر والدخان
مدائح الشعر والحجر... مدائح الذهب والبحر
- 69 I- "هذه أثينا... وتلك أعمدة الأولمب"
- 73 II- شاعرية المدن وغرام اللصوص
- 78 III- أثينا وشعر الآلهة الضائع
- 83 IV- حنين التائهين على الأرض
- 87 V- أثينا... والمباركة الإلهية لزيوس
- 91 VI- إيثاكا وعالم كفافيس الساحر
- 96 VII- شعر.. مدينة.. وعناق طويل
- 99 VIII- فنان من أثينا
- 103 بقايا رجل من أثينا
(من دفتر ذكرياتي في أثينا وبيروس)

- 113 (أنا زهرة النار... أنا حصّة الآلهة)
رحلة إلى الجزائر
- 115 I- مقاطع في تقريض المدينة الغامضة
- 121 II- رحلة إلى الجزائر أو رحلة إلى أعماق الليل
- 127 III- القصة القديمة ومدافع بابا عروج
- 131 IV- رحلة صغيرة في جزائر الليل
- أنا ونوري الجراح وأبو بكر زمال
- 136 V- بليدة ورحلة إلى الجبل
- VI- كامو والجزائر
- VII-

149	أسواق، جوامع وشعراء
	رحلة إلى طهران
151	I- شعراء جبال البورز
156	II- طهران من الجامع إلى السوق
162	III- من الفردوسي إلى سروش
167	IV- فلاسفة، متصوفة، وشعراء
174	V- قلعة الموت وأسطورة الحشاشين
179	كتاب الحشاشين، مقاطع من قصيدة طويلة
195	ترانزيت، حقائب، وشعراء
198	آثارنا مهاجرة في قبرص
202	من مارسيليا إلى إكس بروفنس
	أسطورة المعنى والأعراق المختلطة
207	مارسيليا.. شاعرة الجنوب
210	خاتمة



الكتاب

خرائط منتصف الليل هو الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي، وقد ترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية. هو كتاب رحلات إلى اسطنبول وطهران والجزائر وأثينا وقبرص وباريس، وهذه الرحلات كما يريد كاتبتها "تمرين حي على الشعر.. وهي تجديد وانبعث للجسد مثلما يجدد الشعر بفعالية جسد اللغة ويمنع عنها التكلس والموت. أما الرحالة فهو شاعر تائه تسيطر عليه فكرة عمر الإنسان وعمر الأرض، وروح المكان، إنه شاعر أصيل وغامض، مكتشف رائد، مليء بالأسرار، إنه مثل الشاعر متوحش قليلا، وحيواني أيضا لأنه يفترس الجمال بنهم مثل حيوان جائع.."

علي بدر

روائي عراقي، فازت روايته "بابا سارتر" بالعديد من الجوائز وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية.

ISBN 2-84306-011-X



9 782843 080111